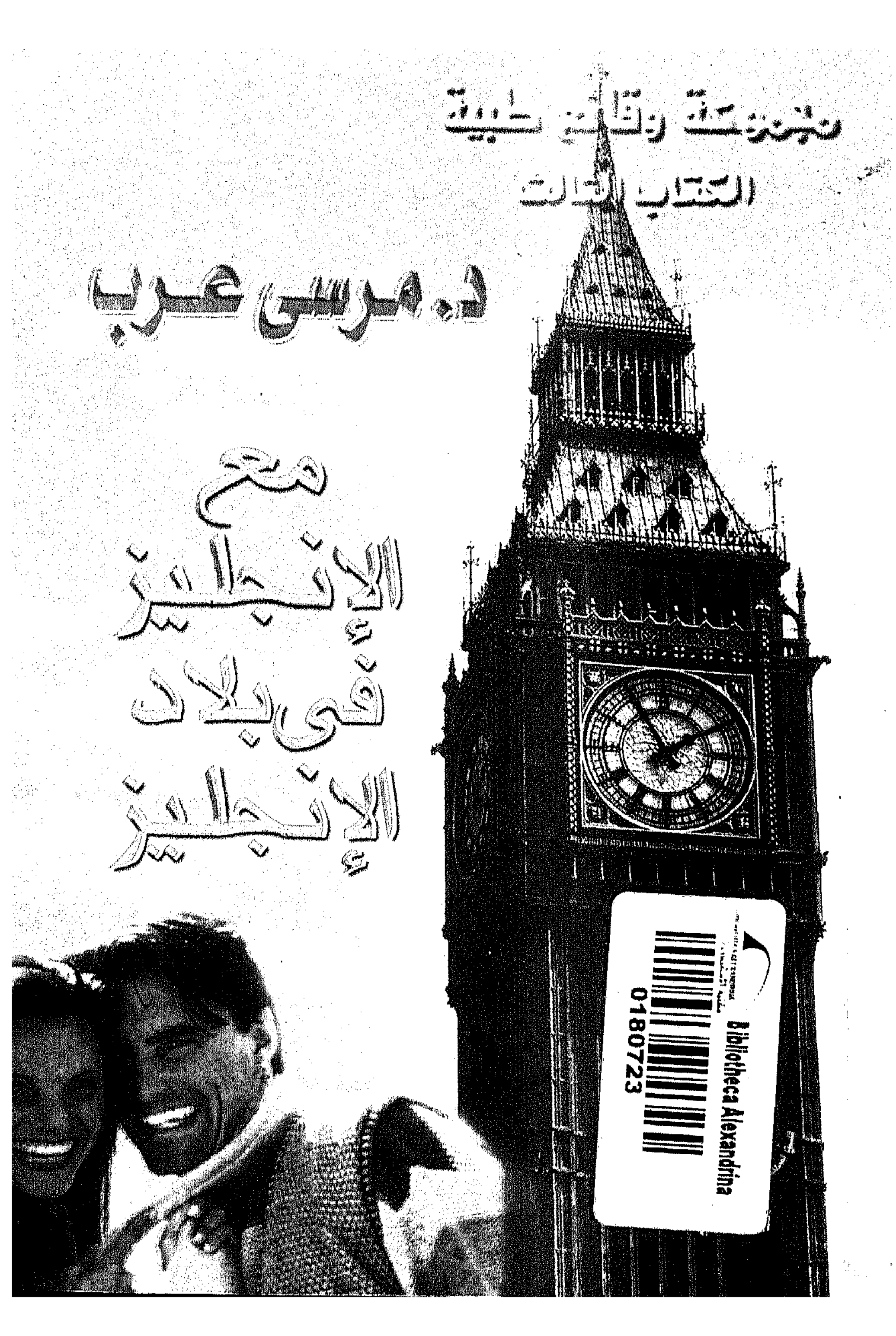

مجموعة وقائع طبية
الكتاب الثالث
د. مرسى عرب
مع
الإنجليز
في بلاد
الإنجليز
Bibliotheca Alexandrina
01180723



مجموعة وقائع طبية

الكتاب الثالث

مع الإنجليز فى بلاد الإنجليز

أ.د. مرسى عرب

الناشر مؤسسة حورس الدولية

للنشر والتوزيع

٤٤ اش طيبة ـ سبورتنج ـ الأسكندرية

رقم الإيداع

١٧٩٦٧/٢٠٠٠

الترقيم الدولى
966-5902 47 -9

المحتويات رقم الصفحة



مقدمة

لهذا الكتاب قصة

فهو يتضمن خواطر وتجارب عن مرحلة فاصلة من حياتى عشتها فى لندن فى أوائل الستينيات ولمدة تزيد قليلا عن عام ...

ثم تجولت بعد ذلك فى أنحاء بريطانيا طولا وعرضا

وهذه الفترة من حياتى كانت عندما كنت فى حوالى الثلاثين من العمر وهى المرحلة التى يبنى الانسان فيها نفسه وتتكامل عندها خبراته الأساسية ليبلغ بعدها مرحلة الانطلاق والبناء والاضافة والعطاء...

ولذلك فقد كانت مرحلة النضج التى يستطيع المرء فيها أن يستوعب دروس التجارب وأن يتعلم منها، ليستفيد ويفيد ....

وقد عملت جاهدا على الاستفادة مما تعلمت، وأعتقد أننى نجحت فى ذلك إلى حد كبير،وهذا الكتاب هو جانب من محاولة الإفادة أيضا مما تعلمت، وهو بذلك مكمل لما بذلته

ولازلت أبذله فى مراحل حياتى بعد ذلك من العمل على إفادة تلاميذى بوجه خاص والشباب الذين عرفتهم بوجه عام، باستخلاص حكمة التجارب، لحفز الهمم لتحقيق الأهداف، أو على الأقل لاتباع الوسائل الناجحة، وربما أيضا للبعد عن الوقوع فى الأخطاء ...

ومن الغريب أننى كتبت هذا الكتاب الذى يتناول تاريخيا على وجه التحديد العامين الأولين من ستينيات القرن العشرين بعد عودتى من انجلترا بسنوات قليلة، ولكننى لسبب لا أستطيع له تبريرا قد حبست مسودات الكتاب عن المطبعة مايقرب من ثلاثين عام ....

وهناك القليل جدا من الأعمال التى بدأتها على هذا النحو ثم توقفت عن استكمالها قبل أن تبلغ أهدافها النهائية، مع أننى كنت قادرا تماما على الوصول بها إلى تلك الأهداف لولا إنشغالى بما كنت أظنه أولويات طرحت جانبا ما يقل عنها من أهمية ...

ولقد كنت مخطئا تماما فى ذلك، وقد آلمنى هذا الخطأ باستمرار وأنا أتمثل قول الشاعر :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وعندما قررت أخيرا أن أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة بعد مراجعة كان لابد منها، لتعديل بعض العبارات التى لم تعد صحيحة أو ملائمة بعد مرور ثلاثين سنة على صياغتها لأول مرة، وجدت أن الأحوال قد تغيرت فى لندن وفى بريطانيا بوجه عام تغيرا خطيرا وواسعا .

إلا أن التجارب الانسانية التى تحتويها فصول هذا الكتاب، لحسن الحظ ولدهشتى عند مراجعتها لم تزل كما هى، معبرة تماما عن المعانى التى قصدتها وساعية لتحقيق الهدف من روايتها بصرف النظر عن مرور تلك السنوات العديدة ...

ومع ذلك فقد كانت الحياة فى انجلترا وفى العالم كله على شكل معين فى أوائل الستينيات من القرن الذى مضى،

وهى مختلفة الآن فى مطلع هذا القرن الذى يرى فيه الكتاب النور بإذن الله .

ولعل بعض الصور الفوتوغرافية المنقولة التى اخترتها بعناية لتصوير أنماط الحياة ومجرى الأحداث فى الزمن الذى أروى فيه حكاياتى تغنينى عن كتابة فصول مطولة كى أصف الإطار الزمنى لهذه الحكايات حتى أتفرغ فى المساحة المتاحة لتجربتى الشخصية والتى تمت فى ذلك الإطار الشامل .

والواقع أننى كلما زرت مواقع الأحداث التى ترويها فصول هذا الكتاب هذه الأيام أجد نفسى منبهرا بمساحة التغيرات أو حجمها والنظم السريع لحركة التطور ،فلم تعد لندن اليوم هى تلك التى عشتها فى الستينيات، ولكنها من ناحية أخرى مازالت وكأنه لم يمرعليها إلا يوم أو بعض يوم، فهناك البيج بن ومبنى البرلمان الانجليزى العتيق الشامخ وميدان الترافلجار (الطرف الأغر) وبيكاديللى وشارع أكسفورد والهوايتهول تغيرت بعض الملامح

المعمارية فيها ولكن بقيت الأصالة والتراث فيها كما هما شامخين • صحيح أن تمثالا عظيما لونستون تشرشل قد قام فى مواجهة مبنى البرلمان، وصحيح أنهم قد أقاموا متحفا يؤمه الزائرون اليوم فى المكان الذى كان يدير منه تشرشل شئون الحرب العالمية الثانية من تحت الأرض ويقع قرب حى الوزارات فى هوايتهول ••• ولكن كل ماعدا ذلك بقى كما هو •••

وصحيح أن اللغة العربية قد أصبحت تملأ الشوارع والمحلات التجارية والبنوك، مسموعة أو مقروءة، ولم تكن الأمور على هذا المنوال فى أوائل الستينيات، والصحف العربية أصبحت متاحة فى كل يوم فى أكشاك بيع الصحف، والأطعمة المصرية والعربية فى المطاعم المنتشرة فى كل مكان، ومحلات "المكدونالدز" تملأ الشوارع والأحياء بدلا من محلات السمك والبطاطس الانجليزية التقليدية (الفيش أند شيبس) •

وصحيح جدا أن أخلاق الانجليز - على الأقل في شوراع لندن التي تعج بأصناف الوافدين من كل أركان الأرض لم تعد كما كانت أخلاقهم من حيث التمسك بالتقاليد البريطانية الصادقة، إلا أن هناك شيئا ما في لندن لا تخطئه العين أو الأذن لايزال موجودا ٠٠٠٠ فالتغيرات التي حدثت في حياة الانجليز وفي بلادهم ربما كانت أقرب إلى التطور الطبيعي الذي حدث في العالم كله على وجه شامل ٠

وفي هذا الصدد فإن لندن تختلف بلا شك عن مدن أخرى قُدّر لي أن أشهد الحياة فيها في فترة الستينيات ثم عدت مرة أخرى أو أكثر لزيارتها بعد ذلك ٠٠٠ مدن ألمانيا مثلا وبخاصة برلين الشرقية وغيرها (مجدبورج - ليبزج الخ) قبل وبعد توحيد ألمانيا ومدن أوروبا الشرقية (بودابست وبراج وبوخارست وموسكو ولينينجراد) قبل وبعد الانهيار الشيوعي، والمدن الإيرانية قبل وبعد الثورة

الاسلامية، وكثير من المدن الافريقية فـــى أوغنـــده وكينيا قبل وبعد انحسار الاستعمار عنها ..

ولـهذه كلها قصص أخرى أرجو من الله أن يمكننـــى من تسجيل تجاربى فيها بعد تعدد الرؤى المختلفة باختلاف الزمن مما أتيح لى من زياراتى المتعددة إلى تلك البلاد ..

وبعد فإننى مرة أخرى آمل فى أن التجربـــة التـــى تحكى عنها قصص هذا الكتاب تكون ليست فقـــط ممتعـــة للقارىء، وانما هى أيضا ذات محتوى أتعشم أن يكون بناءا ومفيدا ..

والله ولى التوفيق،،،،

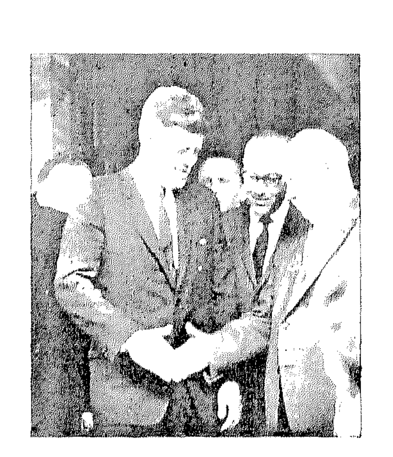
أ.د مرسى عرب

ملامح وصور من

عصر أوائل الستينات

فى

إنجلترا والعالم





عصر جون كيندي وجاكلين كيندي





عصر ارسال رجل فضاء أمريكى الي القمر





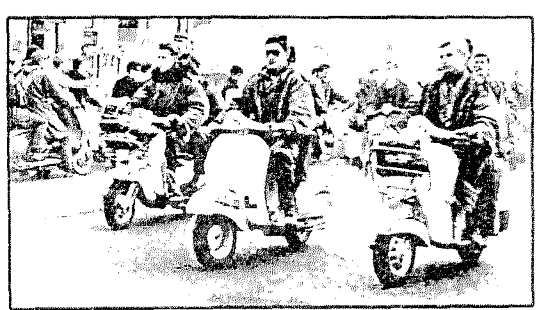
الكفاح للقضاء على التفرقة العنصرية ضد السود فى جنوب أفريقيا وكفاح مارتن لوثر كنج فى أمريكا



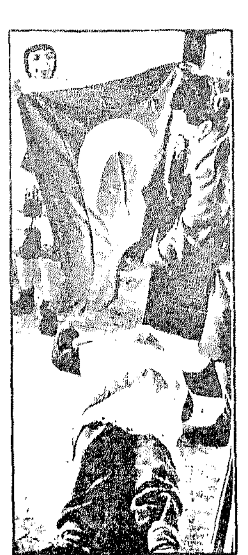


المظاهرات والإحتجاجات
فى كل مكان ولأى سبب





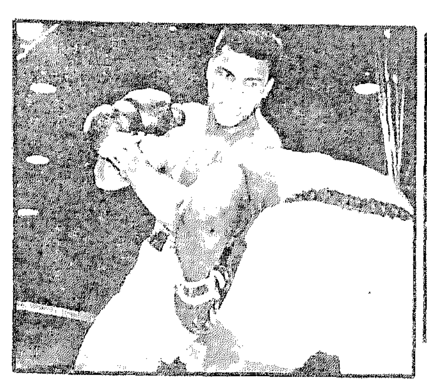
الحركات الشبابية والطلابية الصاخبة

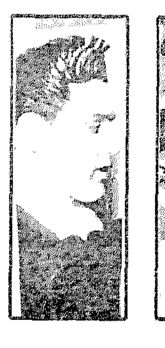
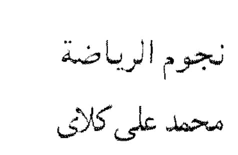






ثورات التحرير الوطنية فى كل مكان :
فى الجزائر وحركة جومو كينياتا
فى إفريقيا




نجوم الرياضة

محمد على كلاى

ونجوم السينما بريجيت باردو وألفيس بريسلى

وعصر الروك أند رول .









وتألق فرانك سيناترا وصوفيا لورين

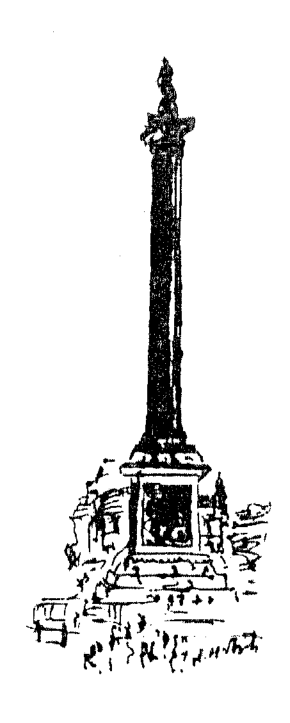
وانتحار مارلين مونرو



عصر التقاليع والبدع
والحياة الفارغة لقطاع
من الناس فى المجتمع

الفصل الأول

الطريق الى لندن





الطريق إلى لندن ١٩٦١

لندن عاصمة الإمبراطورية البريطانية ... طبيب شاب تطأ قدماه أرضها لأول مرة فى صباح يوم من أيام شهر سبتمبر ١٩٦١ .

الطبيب الشاب لم يكمل بعد الثلاثين من عمره ... كنت حينذاك أقف على أول طريق المستقبل الذى حدده الله لى، فقد حصلت على الدكتوراه فى أبريل من ذلك العام وأصبحت مؤهلا للتعيين فى وظيفة مدرس بكلية طب الاسكندرية عندما يتيسر توفير الوظيفة الخالية!

ومعنى ذلك أنه عندما وقعت عيناى على المدينة الشامخة، كانت عينى رجل تام النضج، أو بالمعايير الجامعية : عالم صغير مبتدىء مؤهل لنقل علوم الطب للآخرين .

ومع ذلك فإننى حتى ذلك الوقت لم أكن قد زرت لندن، أو أى مدينة أخرى خارج الوطن .

ولم يكن هذا غريبا فى ذلك الوقت - وقـــد يكـون غريبا بعض الشيء بمقاييس الحاضر، بعد أن مضى علــى ذلك الزمان الخالى مايقرب من أربعين عام، فإبنى مثلا قــد زار لندن ثلاث مرات وهو بعد لم يزل طالبا فى كلية الطـب، و تلاميذى من الطلاب فى الجامعة - بل والطالبات أيضـا - زارت نسبة كبيرة منهم عواصم كثيرة من بلاد العـالم فـى رحلات متعددة ...ولندن على وجه الخصوص يزورونـها بأعداد ضخمة فى كل عام، وهم بعـد لـم يتخرجـوا فـى الجامعات .

أما أنا : فتلك كانت أول مـرة أخـرج فيـها مـن مصر... ولم أكن وحدى فى هذا الموقف... كـان كـل زملاء دفعتى فى التخرج على هذا النحـو ! بـالرغم مـن مرور مايقرب من سبع سنوات وقتئذ على تخرجنا، اللهم إلا من قد هاجر منهم فور تخرجه إلى دولة أجنبية، أو سـافر للعمل فى إحدى الدول العربية أما باقى الزملاء جميعا فلـم يكن قد خرج منهم أحد حتى ذلك الوقت،على سبيل السياحة

أو لبعثة تعليمية أو نحو ذلك ، وكنت أول من يحصل من جماعتى هذه أو من أبناء دفعتى على تلك الفرصة التى جاءت على شكل منحة علمية من المجلس البريطانى. ولندن كانت – ومازالت بالطبع – إحدى عواصم الدنيا التى يُحسب لها ألف حساب ..

لكنها كانت إلى جانب ذلك بالنسبة لنا، نحن المصريين، إسما يثير فى النفس عواطف شتى ومتباينة ! وفى كثير من الأحيان متناقضة بعنف ...

فكثير من الأساتذة الأجانب الذين عرفناهم كانوا من الإنجليز، بل إننى تتلمذت فترة من الوقت فى صباى عند تعلم اللغة الإنجليزية على يد مدرس إنجليزى،والأهم من ذلك أننا تعلمنا الطب باللغة الانجليزية، وقرأناه فى كتب معظمها إنجليزى، وأساتذتنا المصريون الذين تتلمذنا عليهم مباشرة كان أغلبهم ممن درسوا دراساتهم العالية فى إنجلترا أو اسكتلندة أو أيرلندة ... وهكذا كانت علوم الطب البريطانى وتقاليده تتغلغل فى عقولنا، وتحيطه بالتالى

مشاعرنا بهالـــة مـــن الاحـــترام والتقديـــر ... فـــالطب الانجليزى أصل من أصول ثقافتنا ودراستنا، وهو أصل قوى له جذور متغلغلة فى حياتنا .

غير أنه كان هناك وجه آخر لكل ماهو إنجلـــيزى ؛ وجه له أثر سلبى لامجال لإنكاره فى نفس كل مصـــــرى . فانجلترا بالنسبة لنا نحن المصريين هى الدولة التى احتلـــت بلادنا مايزيد على سبعين عام، والانجليز هم مـــن تفتحـــت عيونى وآذانى منذ الطفولة وعبر مراحل الصبا على أنـــــهم قوم غاصبون لبلادى ..وما أكثر المرات فى صباى التـــى طرقت أسماعى أصوات أهلى وبنى وطنـــى وهـــم يلعنـــون الإنجليز، ويمطرونهم بوابل من الدعوات بأن يخـــــرب الله بيوتهم، ويخلصنا من شرورهم ..والإنجليز هم الذين لـــــم أتردد فى صدر شبابى وأنا بعد طالب فى منتصف دراســـتى بكلية الطب أن أهجر تلك الدراسة بعضا من الوقت، لأنضـــم إلى حركة الفدائيين المصريين الذين يحاربونهم فى منطقـــة القنال عام ١٩٥١، لعلنا نستطيع أن نخرجهم مـــن بلادنـــا

بقوة السلاح، على قلة و تفاهة ما كان فى أيدينا منه وقتئذ !!

وهكذا كانت لندن عاصمة بلاد الانجليز، أردت أو لم أرد، إسما يرتبط بمزيج متباين ومتناقض من الأفكار والمشاعر ...كان ذلك عن المكان ... أما الزمان، فقد كان عام ١٩٦١ .

كانت مصر قد قامت بها ثورة أدركني قيامها وأنا فى أوائل العشرينات من العمر، وكان قد مضى على قيامها نحو تسع سنوات، خاضت بلادنا خلالها تجارب عديدة، الكثير منها كان يثير مشاعر الفخر والاعتزاز، ولو أن بعضها الآخر كان قد بدأ يثير الشجن فى النفوس .

وفى عام ١٩٦١ كانت مصر قد مضى بعض الوقت على خروجها من العدوان الثلاثى الذى قامت به إنجلترا وفرنسا وإسرائيل عام ١٩٥٦ .وكان لانجلترا بالذات نصيب الأسد فى إدارة هذا العدوان، ولكن مصر كانت قد خرجت منه أفضل حالا مما كانت عليه، فقد تخلصت على

الأقل بعد ذلك وإلى الأبد-من بقايا كل صور الوجود البريطانى فى منطقة القنال، وخرجت بريطانيا بعار أبدى لحق بها نتيجة التواطؤ مع فرنساوإسرائيل، وكان الشعب الانجليزى يطلق على قصة العدوان على مصر أزمة السويس The Suez Crisis .

والانجليز كانوا وقتها لايزالون يتذكرون أحداث الأزمة التى هزت الحكومة البريطانية هزا عنيفا، وأسقطت رئيس الوزراء أنتونى إيدن فيما بعد كما هزت مشاعر الشعب البريطانى مثلما لم يحدث من قبل ..

وماذا أيضا عن تلك الحقبة الزمنية حول عام ١٩٦١؟

كانت هذه الحقبة نقطة تحول فىالحركة الثورية فى مصر ؛ كان فترة بناء الصناعة الثقيلة من جهة ومرحلة لما أطلق عليه بالتحول الاشتراكى من جهة أخرى .

أما فى العالم الواسع فكان ذلك الوقت هو فترة الاستعداد لغزو الفضاء، كان حكم "جون كيندى" فى أمريكا،

كان عام الحركات النشطة للشباب فى مختلف أرجاء العـالم، عام الروك أندرول والقلق والاندفاع . وأهم من كـل هـذا وذاك فان الفترة المحيطة بعام ١٩٦١ كانت فـترة غـروب الشمس عن الإمبراطورية البريطانية وبـدء زوال هيبتـها التقليدية فى العالم .(أنظر مجموعة الصور عـن مظـاهر عصر مدخل الستينات) .

* * *

فى ذلك الإطار الزمانى والمكانى وطئت قدماى لأول مرة أرض لندن ..

كنت فى نهاية المطاف من رحلة طويلة بدأت بحـرا من الإسكندرية وانتهت برا فى لندن بوصولى بالقطار القادم من بلدة هارويتش Harwich على الساحل الشرقى لانجلـترا إلى محطة شارع ليفربول Liverpool Street Station بقلـب العاصمة البريطانية .

وعلى رصيف المحطة وجدت لدهشتى من ينـادينى باسمى ... شاب إنجليزى تقدم إلى مصافحا، مقدما نفسـه

على أنه مندوب المجلس البريطانى الذى كان يقــع مقــره الرئيسى وقتئذ بشارع دايفز المتفرع من شارع أكســفورد الشهير بقلب العاصمة .

كان الرجل يحمل علامة مميزة، وكان من المفروض أن أقوم أنا بالتعرف عليه عن طريق تلك العلامة، فقد كــان ملفوفا حول ذراعه الأيمن شريط مــن القمــاش الأبيــض مكتــوب عليــه بوضــوح بالانجليزيــة عبــارة"المجلــس البريطانى" . . .وحسب التعليمات التى كانت لدىّ مــن قبــل كان من المفروض أن أهتم فور نزولى من القطار بــالبحث عنه، والتعرف عليه عن طريق تلك الشارة المميزة .

و بــالرغم مــن ســابق التعليمــات التــى كنــت أحفظها تماما، فــاننى لــم أهتــم بــالبحث عنــه، لســبب بسيط جدا هو أننى لم أكن أتوقع وجــوده فــى إنتظــارى حقا، فأنا لم أصل فى الموعــد المحــدد أصــلا لوصولــى، بل تأخرت أربعــا وعشــرين ســاعة كاملــة عــن هــذا الموعد ! . ، ثم كيف يتسنى لــه هــو أن يعرفنــى وأنــا لا

أضع مثلا على ذراعى شارة تقول أننى فلان الفلانى الذى يأتى إلى لندن لأول مرة فى حياته ؟.. وأيضا كانت هناك جموع غفيرة تنزل من القطار فى ذلك الصباح، وكثير منهم ولا شك قادمون من خارج البلاد، فهذا القطار يأتى من مدينة هاروينش الساحلية التى تستقبل العبارات الموصلة بين الشاطىء الهولندى فىأوربا والشاطىء الانجليزى عبربحر الشمال.وكان لوصولى عن هذا الطريق، ولتخلفى عن موعد الوصول المقرر يوما كاملا قصة، وللقصة خلفية سياسية ...

فقد كانت العلاقات بين مصر وفرنسا وقتها فى غاية السوء، ولذا فانه لم يكن من الممكن أن أمنح تأشيرة للمرور خلال فرنسا بعد عبور البحر الأبيض للوصول إلى إنجلترا بعد ذلك عن طريق العبارات التى تصل بين مينائى كاليه الفرنسى ودوفر الإنجليزى،وذلك جغرافيا - هوأقصر

طريق للوصول إلى لندن - بما يطلق عليه" الطريق البحرى القصير "

غير أنه كان على وأنا أتخذ هذا الطريق البحرى أن أدور حول فرنسا دون المرور بها، وحتى لا أضطر لسلوك الطريق البحرى الطويل الذى يستغرق وقتا أطول بكثير ..

فالطريق البحرى الطويل إلى انجلترا يبدأ من بورسعيد عادة، فيستقل المسافر إحدى البواخر الضخمة المارة بقناة السويس عائدة من استراليا أو الشرق الأقصى، مارا بطول البحر الأبيض المتوسط إلى مضيق جبل طارق ثم بحر المانش مباشرة إلى الشاطىء البريطانى.

أما الطريق البحرى القصير الذى كنت أسلكه وقتئذ إلى إنجلترا- فيبدأ عادة بباخرة تتجه من الاسكندرية إلى أحد موانى جنوب أوروبا، ثم يكمل المسافر طريقه بالسكك الحديدية فى أحد القطارات الدولية عبر مختلف الدول الأوربية حتى الساحل الجنوبى لبحر الشمال - ومن هناك يستقل عبارة بحرية مرة أخرى لعبور بحر الشمال إلى أحد

الموانى البريطانية ويستقل من هناك قطارا مرة ثانية إلـــى داخل انجلترا ...

وكان تخطيط رحلتى هو أن تبدأ مـــن الاســـكندرية بحرا إلى ميناء فينيسيا بايطاليا بعد مـــرور عـــابر بمينـــاء بيريه باليونان، ثم أن أستقل قطارا إيطاليا من فينيسيا إلـــى ميلانو لألحق بالقطار الدولى فى الخط الذى يطلقون عليـــه " إكسبريس لورللى".

كان من المقرر أن تستغرق رحلة القطـــــار ســـبعة عشر ساعة متواصلة، يخترق القطار خلالـــها إيطاليـــا ثـــم سويسرا فألمانيا لتنتهى فى هولنده عند ميناء هـــــوك أوف هولند Hook of Holland على بحر الشمال ...

وخلال هذه الرحلة بالقطار السريع كانت مشـــاعرى غاية فى الاثارة بعد أن انتهى الجزء البحـــرى الأول مـــن الطريق ... كان ينتابنى ذلك الشعور المثير الذى ينتـــاب المسافر لأول مرة فى حياته للخارج فيغمرنى بنشوة لذيـــذة لاتخلو من القلق، والتفتح للحياة ... لقد قمت فيما بعـــد

ذلك وخلال مايقرب من أربعين عـام بمئـات الرحـلات، بمختلف وسائل المواصلات، طفت فيها بدول العـالم كلـه ... ولكن ليس هنـاك شيء يبعث على الإثارة كالرحلـة الأولى، مطلقا ..

ومع أن رحلة السكة الحديدية بدأت في فينيسـيا- مدينة الجندول، وكان صوت عبد الوهاب يرن فـي أذني فيداعب خيالي والباخرة تقترب من الميناء "أين من عيني هاتيك المجالي ... ياعروس البحر ياحلم الخيال .." فقد اختلطت يومها شاعرية القنوات المائية والجندول، بربكـة السفر ومشـاكل الحقـائب واسـتغلال الحمّـالين الايطاليين..حتى الجندول الذي ركبته مـن الميـنـاء إلـى محطة السكة الحديد لأستقل القطار إلى ميلانو، كان يـؤدي وقتها مهمة التاكسي ولم يكن فيه ما يبعث علـى الخيـال ... ومع ذلك فقد كان يومًا لا ينسى..

بعد أن وصل القطار إلى ميلانـو، كـان علـيّ أن أقضي عدة سـاعات فـي محطـة سـكة حديـد ميلانـو

الضخمة قبل أن أستقل القطار الدولى فى منتصف الليل، وفى الصباح الباكر كان القطار السريع ينهب بى الأرض نهبا، وعبر نوافذه لاحت لى جبال سويسرا الشامخة وبحيراتها الجميلة ..الخضرة تمتد إلى أبعد مرمى للبصر ... والجبال على قمتها الثلوج البيضاء، ومنظر الطبيعة الخلاب يبعث فى النفس التأمل والهدوء فيطفىء شعور القلق ..

ثم يوالى القطار السريع طريقه مخترقا ألمانيا الغربية وعيناى تسترقان النظر من وقت لآخر إلى جدول مطبوع يحدد مواعيد وصوله إلى كل محطة فأجدها مطابقة بشىء يدعو للدهشة والانبهار...

من ساحلها الجنوبى إلى غرب الساحل الشمالى- وساعة تلوساعة، وجدتنى قد عبرت أوربا وأصبحت فى أواخر مسيرتى عبر أراضى هولندا ..كانت المحطة التالية للقطار هى روتردام، ولايبقى بعد ذلك إلا بضع كيلو مترات أخرى للوصول إلى نهاية الخط على بحر الشمال.

وعندما لم يكن باقيا من الزمن سوى عشر دقائق على وصولنا الى روتردام خطرت لى فجأة فكرة سريعة فرحت أسائل نفسى، ماهذا الذى أفعله؟ أننى أحس بشعور غامر بالإثارة خلال كل ساعة يقطعها ذلك القطار .. مع أننى لاأرى من أوربا إلا مايحيط بخط السكة الحديد من مناظر الطبيعة وما يوجد فى محطات القطار من مشاهد تكاد كلها أن تكون صورة متكررة طبق الاصل .. ومع أننى لا أتعاطى الخمر مطلقا فقد أحسست أننى كمن يصفونهم بتعاطى الكأس دفعة واحدة وتساءلت مرة أخرى، أليس من منطق الأشياء أن يحاول الإنسان إبطاء حركة الزمن فى مثل هذه الظروف. أو على الاقل أن يوهم نفسه بذلك - ليرتشف النشوة فى بطء وتمعن ..؟

وكانت النتيجة المنطقية لهذا التفكير السريع الذى لم يستغرق بين اشتعال الفكرة واتخاذ القرار سوى لمحة من الزمن، أن قررت التوقف فى روتردام مهما كانت النتائج ...

وكم كانت غبطتى كبيرة عندمـــا توجـــهت بســـؤال سريع الى كمسارى القطار عما يمكن أن يكلفنى ذلــك أو أن يحدث لى لو أننى قطعـــت الرحلـــة وتوقفــت يومـــا فـــى الطريق ٠ ٠وأجاب الرجل " لن يكلفك ذلك شيئا، ولن يحـــدث شيء على الإطلاق، فالتذكرة سارية المفعول فى نفس خـــط السير المحدد لها، واذا أردت أن تقطع الرحلة بالتوقف عدة مرات فلا بأس فى ذلك وأنت حر فيما تفعل ٠ ٠"

فى أقل من لمح البصر كانت حقائبى معدة للـــنزول فى روتردام – المحطة القادمة والمدينة الهولندية التى لـــم أكن أعرف عنها شيئا، ولا أعرف فيها إنســـانا يمكـــن أن يستقبلنى أو يرشدنى ٠ ٠ وكان ذلك القرار يحتـــاج لـــروح مغامرة كبيرة بمقاييس ذلك الزمان، وليس بالقطع بمقـــاييس هذه الايام، التى يسافر فيها الشبان والشـــابات، ويقطعـــون ويواصلون رحلاتهم، ويسيحون فى مدن لا يعرفونها، بـــل ودون أن يملكوا فى جيوبهم فى كثير من الأحيان ما يعينـــهم من مال على مطالب معيشتهم ٠ ٠

ونزلت فى روتردام وقضيت فيها ليلة ويوما ٠٠ ولهذا قصة أخرى سأرويها عندما أتحدث عن زياراتى لأوربا ٠٠

وفى اليوم التالى ركبت نفس القطار من محطة روتردام ليصل بى فى المساء إلى مدينة هوك أوف هولاند، ثم ركبت العبارة الليلية لأنتقل إلى الساحل الانجليزى من بحر الشمال فوصلت إلى هارويتش فجر اليوم التالى ٠٠

ومع أول نسمات الصباح كنت أغادر قطار هارويتش- لندن ٠٠ حيث التقيت بصديقنا مندوب المجلس البريطانى ٠٠

* * *

سألنى الرجل بود ظاهر"صباح الخير- أعتقد أنك الدكتور فلان ٠٠" وأجبت "نعم أنا هو"- وكنت على الفور قد استعدت إحساسى بالعودة الى خطة العمل حسب البرنامج المقرر لى، ولمحت على الفور الشارة البيضاء على ذراعه ثم عدت أسأله : ولكن بالله كيف علمت أننى سأحضر اليوم،

وفى هذا القطار بالذات حتى تنتظرنى، وقد كان المفروض أن أصل إلى لندن بالأمس؟..

وهنا تبدو روعة التخطيط الذى يتسم ليس فقط بدقة التنفيذ وانما أيضا بالمرونة لحساب كل الاحتمالات المعقول حدوثها، فقد أخذوا فى الاعتبار أنه من المحتمل أن لايرغب - أو لا يستطيع القادم فى رحلة طويلة كهذه أن يواصل السفر بشكل مستمر، وعندئذ فانه سيقرر أن يتوقف يوما فى الطريق وسوف يعاود سلوك نفس الخط إلتزاما بالتذكرة المحددة ليصل فى الموعد المماثل تماما فى اليوم التالى..

وهذا ماحدث معى بالضبط.. وفسرها المندوب بأنه حضر بالفعل للقائى فى اليوم السابق فى الموعد المحدد للوصول، وعندما لم يجدنى حدس أننى قطعت الرحلة يوما واحدا، فحضر لمقابلتى مرة أخرى فى نفس الموعد فى اليوم التالى..

كانت سعادتى بذلك عظيمة، فقد إنزاح عنى القلــق نحو تدبير مشاكل الخروج من المحطة والبحث عن تاكســى للانتقال من محطة شارع ليفربول الى شــارع ديفــيز فــى مدينة لم أكن أعرفها، وأصبح هذا كله من مسئولية الرجــل الطيب الذى جاء لاستقبالى .

كانت الصدمة الاولى التى أصابتنى بمجرد خروجنــا من المحطة إلى مدينة لندن الضخمة .. لم أشعر على الفور بما كنت أتوقعه من عظمة، فميدان المحطة هناك مزدحــم، والمدينة فى ذلك الجزء ليست بالفخامة التى تخيلتها والتــى رأيتها فيما بعد فى ميادين لندن العظيمة الاخــرى كميــدان الطرف الاغر مثلا .

والحقيقة أن أغلب محطات القطار التى تصل الــى لندن ويزيد عددها على سبع محطات، لا تطل على ميــادين واسعة وفخمة توحى إليك اذا خرجت من المحطة أنــك قــد وصلت الى مدينة عظمى تحمل كل ذلك التراث العظيم .

ولعل ميدان محطـــة ليفربـول ستريت بـالذات، والمحطة نفسها، قد أصابهما خلال العشرين عاما التالية بعد ذلك بعض التجديد والتجميل، إلا أن صورتها أمـامى عـام ١٩٦١كانت أقرب إلى تلك الصورة التى شاهدناها فى أفـلام السينما المصورة لمحطات السكك الحديدية إبـان الحـرب العالمية الثانية.

وعلى وجه العموم لم تكن لندن عندما وطئت قدماى أرضها لأول مرة باسمة على الإطـلاق، بـل بـدت كئيبـة مقبضة، زاد من كآبتها جو ملبد بغيوم الخريف، أضفى على كل مبانيها لونا رماديا مختلطا بالسـواد، بـالرغم مـن أن وصولى كان فى أول النهار ..

وعلى العكس من ذلك تماما كـان النـاس الذيـن قابلتهم فى ذلك الصباح، لقد كانوا من نـوع فريـد،"فـهم يصدمونك " إذا جاز هذا التعبـير - مـع أنـهم موظفـون حكوميون، بفرط اهتمام ومودة، وهم يشعرونك وأنت القـادم

اليهم لأول مرة أنهم يحسبون لك وعنك كل شيء بمنتهى الدقة والنظام ..

وخلال بضع ساعات من وصولى، كنت قد انتقلت من يد ليد، بين موظفين يتمتعون بكفاءة نادرة، وسرعة غريبة فى إجراء خطوات محددة، فهمت فيما بعد ذلك أنها خطوات شبه روتينية تعودوا عليها، إلا أنهم يؤدونها بطريقة تشعرك بالخصوصية، وكأنها قد فصلت على مقاسك .. وخصيصا من أجلك.

فالموظف الذى استقبلنى فى المحطة أوصلنى بالتاكسى إلى فندق خاص كانوا قد حجزوا فيه حجرة أودعت بها حقائبى، وتوجهنا بعدها إلى المجلس البريطانى بشارع ديفيز– بعد محادثة سريعة بين مرافقى وبين موظف الاستعلامات، أعقبها على الفور اتصال تليفونى بين الاستعلامات وبين ماعلمت بعد ذلك أنه قسم استقبال وتوجيه الوافدين الجدد.. وفى دقائق كنا فى حجرة استقبال واسعة للقاء مسئول أو ضابط إتصال مازلت

أذكر اسمه حتى اليوم - مستر ريد-، فقد زاملني طوال مدة المنحة التي استمرت أربعة عشر شهرا ٠

وفي أقل من ساعة ونصف كانت قد تمت عدة عمليات متتالية انتهت بقدر ضخم من الإنجاز ٠٠ وضعوا أمامي صورة واضحة وكاملة عما يجب أن أفعله أو لا أفعله، شرحوا لي وسائل المواصلات مدعمة بالخرائط، سلموا لي مبلغا نقديا من المال للصرف منه مؤقتا، وخطابا لتسهيل فتح حساب على الفور بأحد البنوك، حددوا موعدا للقاء الأستاذ الذي سأعمل معه في مستشفى جايز بجامعة لندن، أعطوني بعض النشرات الإرشادية عن التسهيلات والخدمات التي يقدمها المجلس البريطاني للوافدين عبر البحار، وأجروا اتصالات تليفونية مع عدد من الأسر التي يمكن أن تؤجر لي مسكنا في منطقة مجاورة لمكان عملي ٠٠كل ذلك تم في سرعة بالغة، ومع شرح دقيق يجعل الوافد الغريب يفقد بالتدريج شعور الرهبة والغربة ٠٠

وهكذا استطعت بعد الظهر فى اليوم نفسه أن أقوم بمعاينة بعض المساكن التى أعطيت لى عناوينها، بعد أن وصلت إليها بسهولة، لأقرر إختيار أحدها وأنتقل إليه فى اليوم التالى مباشرة، لأبدأ حياتى الجديدة فى لندن ..

ومرت الأيام يوما تلو الآخر...

وكم هو كثير مايمكن أن يحكى عن التجربة التى مررت بها، وخاصة خلال الأسابيع الأولى من حياتى فى لندن، حتى استطعت أن أتأقلم تماما مع الشارع الإنجليزى، مع وسائل المواصلات، مع طبيعة الطقس المتجهم فى أغلب الأحيان... وأهم من ذلك كله مع الناس...

ولكن من هم أولئك الناس...؟

لقد كانت لى تجارب مع الناس فى الشارع، سوف أحكى منها قصة مع أحد رجال بوليس لندن الشهير، وسأروى قصة أخرى وقعت لى ذات مساء فى أوتوبيس انجليزى ... سأحاول أن أروى قصصا مع الإنجليز فى بيوتهم ونواديهم ... وكطبيب يعمل فى جامعة لندن وفى

واحد من أعرق مستشفياتها فسوف تكون لى بالطبع قصص مع المرضى الإنجليز، ومع الأطباء الإنجليز مـــن أســاتذة وزملاء ...

ولنبدأ بقصتى مع رجل البوليس ...


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

يا بوليس





يابوليس

يبدو لى فى بعض الأحيان أن هناك حبا متصلا بين رجال البوليس والأطباء... وكثيرا ما ألاحظ هذه المودة فى تحية رجل الشرطة المصرى للأطباء، ليس فقط أثناء عملنا فى المستشفيات، بل كثيرا ما أجد جندى المرور فى مصر يبدؤنى بتحية دون سابق معرفة، لمجردأن سيارتى تحمل شارة الطبيب ..

ولقد سمعت كثيرا عن رجل البوليس الانجليزى وعن شهرته فى الصرامة والانضباط، وعن مظهره المثير للاحترام .. دون أن يحمل أى سلاح . ولقد تكون تجربتى مع هذا الرجل مثيرة حقا...

كان ذلك فى أحد أيام نوفمبرعام ١٩٦١ ... وكنت قد وصلت إلى لندن قبل ذلك بأسبوعين، عشت فيهما بالمدينة، وتعرفت على معالمها الرئيسية، واستقر بى المقام فى مسكن مناسب، واستتبت أمورى فى عملى بمستشفى

جايز، وحان الوقت لتلحق بى زوجتى التى كانت قد تخلفت عنى فى السفر من القاهرة إلى لندن لإتمام بعض الاجراءات.

وكان وصولها من مصر بطريق البحر الطويل على إحدى البواخر الضخمة التى كانت تصل إلى ميناء لندن وتقف عند مدخل نهر التيمس عند محطة تيلبرى Tilbury، وكان يتعين علىّ لذلك أن أستقل قطارا فى الفجر من وسط لندن إلى تيلبرى لأستقبلها هناك يوم وصولها...

عندما وصل بى القطار فى الصباح الباكر إلى الميناء، كان علىّ أن أسيرعلى قدمى مسافة قصيرة قطعتها فى دقائق معدودة بين محطة القطار ورصيف الميناء ...

واستقبلت زوجتى عند الرصيف، ثم كان من الضرورى- وهى تحمل معها حقائب السفر – أن نعود معا إلى محطة القطار العائد إلى لندن بسيارة تاكسى وليس سيرا على الأقدام كما حضرت وحدى ... ووجدنا التاكسى المطلوب بسهولة – ولم تستغرق رحلته بين رصيف الميناء ومحطة السكة الحديد فى الواقع إلا حوالى ثلاثة دقائق

. . . وقبل أن ننزل الحقائب من السيارة هممت بدفع الأجرة للسائق، ولم يكن التاكسى بعداد كما هو الحال فى وسط مدينة لندن . . . وفوجئت بأن السائق يطلب جنيها كاملا أجرة للمشوار الذى لم يستغرق سوى تلك الدقائق المعدودة . . . كان الجنيه الاسترلينى فى ذلك الوقت مبلغا ضخما، وقدرت من جانبى أنه أكثر مما يجب، وكان من المرجح أن أدفع المبلغ بدون مناقشة لوأننى كنت قد وصلت إلى البلاد لأول مرة، فالغريب دائما جاهل بالأمور، ومن السهل أن يخضع للأمر الواقع فهو لايعرف لنفسه سبيلا آخر . . .

غير أننى لم أكن وقتها فى مثل هذا الموقف، فقد كان وصولى قبل ذلك بفترة قد أكسبنى شعورا بالثقة، والإحاطة الواعية بما حولى من أمور، خاصة وأننى كنت قد تعاملت بالفعل من قبل مع التاكسيات فى لندن – ومن ذلك أننى كنت قد نقلت حقائبى منذ أيام قليلة سابقة من الفندق الذى نزلت فيه عند وصولى لأول مرة وهو فى غرب

المدينة إلى مسكنى الجديد فى شرقها، ولم أدفع وقتئذ سوى جنيه واحد فى مشوار استغرق مايقرب من ثلثى الساعة عبر مدينة لندن الكبيرة ·

وهكذا أحسست أننى قد أكون محل ابتزاز من سائق التاكسى، الذى كان من الواضح أنه يظننى قد وصلت لتوى إلى إنجلترا لأول مرة.

بدأت مناقشتى للسائق معترضا بحذر شديد، فلم أجده يتمتع بالهدوء الانجليزى والأدب المشهور عن سائقى التاكسى الإنجليز فى تلك الأيام، بل على العكس من ذلك كان صفيقا بدرجة واضحة ·· وعندما تلفتُ حولى لعلنى أن أستنجد بمن يدلنى علىالأقل على وجه الصواب فى تقدير الأجرة، إذ قد أكون مخطئا فى تقديرى، فلا أظلم الرجل وأرتكب عملا لايليق ··وجدت أمامى أحد عمال المحطة التى كانت مقفرة تماما من الناس ···

سألته أن يرشدنى عما إذا كانت تلك الأجرة التى طلبها سائق التاكسى هىالأجرة المعتادة فى مثل ذلك

المكان، ... وجاءنى الرد باردا برودا انجليزيا حقا، لايقل عن برودة ذلك الصباح المبكر، " انها سيارته ... " ولم يزد عن ذلك حرفا ...

وكان من الواضح أن الرد غير موضوعى، ولا يجيب عن سؤالى ... ولكن المهم أنه لم يكن ينتصر لوجهة نظرى فسلمت أمرى لله وقررت أن أرضخ.وفجأة انشقت الأرض، وظهر الكونستابل ذو القلنسوة السوداء بمشيته التقليدية البطيئة .. وكانت حلاوة الروح - أو قل حلاوة الحرص على عدم فقد جنيه كامل مرة واحدة - فقد كان الجنيه يمثل جزءا مهما من ميزانيتى الشهرية - ويكفى أن تعلم وقتها أنه من باب الاستثناء وبشق الأنفس وافقت الحكومة المصرية على أن تحول لزوجتى شهريا مبلغ خمسة عشر جنيها بالاضافة لمرتب المنحة المخصصة لى لمقابلة نفقات معيشتها معى فى انجلترا...

قدمت نفسى لرجل البوليس " أنا الدكتور فلان ...، حكايتى مع السيد سائق التاكسى هى كذا وكذا...

وأنا أرجو أن تخبرنى ما إذا كان الأجر المطلوب مناسبا، أم أن السائق يبالغ ويستغل جهلى ...

وجاء الرد حاسما قاطعا : "تعالى معى ... "

وذهبنا إلى سائق التاكسى فبادره الكونستابل " هل طلبت من هذا السيد جنيها أجر التوصيلة ؟ " وعندما جاء رد السائق بالايجاب، وجه الكونستابل إلى كل منا-السائق وأنا -أمرا بأن يخرج كل منا ورقة وقلما، ويكتب اسمه وعنوانه ... ففعلت، وفعل السائق نفس الشيء، دون أى اعتراض من أحدنا، وقبل أن أفهم مايريد من وراء ذلك مد الكونستابل كلتا يديه، فتناول باليمنى ورقتى وعليها إسمى وعنوانى، وباليسرى ورقة السائق ... ثم قاطع ذراعيه بحركة مسرحية، وسلم كلا منا الورقة التى كتبها الطرف الآخر، وبدا عليه وكأنما قد أنهى مهمته ... غير أننى أصبت بالارتباك عندما وجه إلى الحديث فى هدوء شديد " تستطيع الآن أن تنصرف إلى قطارك .." فقاطعته "وكيف إذن أدفع للسائق أجره ... وكم أدفع له ... ؟ "

وجاء لى الجواب فى حزم " إنك لـن تدفـع شـيئا ويستطيع هو أن يطلب أجـره عـن طريـق المحكمـة إذا أراد ... " وعلى الفور حاولت أن أعـترض علـى هـذا التصرف، فليس هذا بالطبع ما قصدته، بـل كـل ماطلبتـه أن أدفع الأجر العـادل والمعقـول بـدون إسـتغلال ... ولكن نظرة صارمة مـن الكونسـتابل، وكـانت لا تخلـو فى ثناياها من ابتسامة صداقة رقيقة، أوضحـت لـى أنـه لاسبيل لمناقشة هذا القـرار ..

وقبل أن أغادر المكـان تاركـا سـائق التاكسـى يكاد أن يتمزق غيظـا، دون أن يتفـوه بكلمـة واحـدة أو يبدى أى اعتراض، أتبعنى الكونسـتابل المنقـذ بنصيحتـه: "عندما يصلك استدعاء المحكمـة، يحسـن أن تسـتعين بمحـام ..."

ماشـاء الله..! : محكمـة، ومحـامى،وقضيـة من أجل خلاف على أجرة تاكسـى، وربمـا يضيـع فيـها يوم أو عدة أيام، أو تبقى القضيـة معلقـة لعـدة شـهور

أو سنوات كما يحدث فـــى محاكمنـــا٠٠٠ولكن لـــم لا٠٠؟ إنها مســـألة مبـدأ، مســـألة عدالـــة وإنضبــاط ـرفـض للاستغلال٠٠٠وأصبحت أتلهف علـــى وصــول إســتدعائى للمحكمـــة، حتـــى أتمتـــع علـــى الأقـــل بمشـــاهدة العـــدل البريطانى، وكيـــف يعـــالجون مثـــل هـــذه الأمـــور التـــى تتناول مسائل مبدئية،٠٠ ولشد ما أســـفت لأن مثـــل هـــذا الاستدعاء لـــم يصلنـــى علـــى الإطـــلاق ٠٠وكـــان مـــن الواضح أن الســـائق كـــان أعقـــل مـــن أن يضيـــع وقتـــه وجهده فى قضية يبدو أنه ســـوف يخســـر فيـــها بـــالقطع أكثر مما يكســـب ٠

ولقد مر على هذا الحادث ما يقـــرب مـــن أربعيـــن عـــام تغـــيرت فيـــهاالدنيا٠٠ أصبـــح فيـــها الجنيـــه الاسترلينى بطـــل هـــذه القصـــة ومحورهـــا الرئيســـى لا يساوى سوى بضعـــة قـــروش، وتغـــيرت فيـــها أخـــلاق الانجليز على ما يبدو، فلم يعد ذلك الســـائق هـــو العنصـــر الشاذ بين سائقى التاكسـى الانجلـــيز، بـــل أن مثلـــه علـــى

الأرجح هم الغالبية الآن ..ولقد زرت لندن عدة مرات فى أعوام تالية، وشاهدت التطور المؤسف فى طباع الانجليز، غير أننى والحق يقال- لم أجد أن رجل البوليس الانجليزى قد انحرف بدرجة تذكر عن سلوكه التقليدى،ومشيته المحترمة ومظهره السوى، ونظرته الجادة الصارمة .. وأغلب ظنى أنه عند الأزمات الطارئة سيكون معينا أيضا .. ولربما نحظى منه ببعض المجاملة أو المحاباة نتيجة للمحبة التقليدية بين رجل الشرطة والطبيب ..

حتى ولو كان طبيبا وافدا من بلد غريب...



الفصل الثالث

المريض عند الإنجليز





للمريض عند الانجليز احترامه كإنسان .

وهم لايحترمون جسده فقط، وإنما يحترمون أيضا عقله ومشاعره . . .

وجريمة كبرى أن تعامل مريضا – حتى ولو كان من مرضى الأقسام المجانية – بغير تقدير لهذه الاعتبارات الإنسانية الأساسية .

وأساتذة الطب يصرون على زرع هذه القيم فى أذهان طلاب الطب، وهم لايرحمون طالبا يقصر عن استيعاب تلك القيم . . .

والمتقدم لأحد الامتحانات مثلا قد يرسب بعنف فى هذا الامتحان، إذا وجدوه يكشف على المريض أثناء الامتحان بطريقة يشتبه منها بأنه لايراعى هذه الحرمات الضرورية لمشاعر المريض – فهو راسب لا محالة – مهما كانت درجة علمه–إن لم يكن مهذبا فى إجراء الكشف الطبى على المريض . .

بل إننى سمعت عن طبيب رسب فى امتحان زمالة كلية الأطباء الملكية لمجرد أنه فتح نورا مبهرا من منظار قاع العين فجأة فى عين مريض عند الكشف عليه أثناء الامتحان، دون أن يسبق ذلك بتنبيه المريض وشرح طبيعة ما سيتعرض له من فحص، فسبب ذلك ازعاجا بسيطا للمريض ..

والمريض لذلك يجب أن يفهم تقريبا كل ماسوف يتعرض له مقدما .. وهنا تأتى مشكلة من مشاكل البحث العلمى، الذى قد تبدأ بعض خطواته الأولى فى كثير من الأحيان بتجارب على الحيوان قبل أن يجرى تطبيقها على الانسان، غير أنه لابد وأن تأتى بعد ذلك مرحلة من التجربة على الإنسان ذاته وقد لا تكون لإحدى هذه التجارب فائدة مباشرة للشخص الذى تجرى عليه التجربة وقت إجرائها وانما يستفيد من نتائجها آلاف الناس بعد ذلك ..

وهنا تبرز قضية هامة .. هل لابد أن يستفيد المريض مما يتعرض له من تجربة حتى ولو من قبيل

الاحتمال بدرجة أو بأخرى؟ وهل يجب أن يكون هذاالمريض علىعلم مسبق بالتجربة ومتطوعـــا لـــها،عالمـــا بدرجـــة واحتمال إفادته منها؟..

هذا على فرض أنها تكون تجربة مأمونة العواقـــب بالنسبة لسلامة المريض أصلا..

ولقد عملت فى مستشفى جايز بوحدة من وحـــدات القسم الباطنى يطلق عليها "قسم الطب التجريبى". والطـــب التجريبى فى مفهومهم هنالك ليس قـــاصرا علـــى تجـــارب الحيوان وإنما شاملا لما يجرى من بحوث علـــى الإنســـان أيضا .. وكان على أقوم ضمن البحـــوث التـــى أجريتـــها هناك- بتجربة استخدام عقار جديد قد يؤدى إلى تحسين فى وظائف الجسم لدى مرضى السكر .. ومرض السكر كـــان وقتئذ أحد الاهتمامات الرئيسية لبحوث قسم الطب التجريبى بمستشفى جايز، ومن هناك بدأ اهتمامى بذلك الاتجاه مـــن البحوث الطبية .

ولازلت حتى اليوم أحتفظ بصورة من خطاب كـــان علينا أن نرسله لمريضة بالسكر، كنا نعتقـد أننـا بحاجـة لتجربة العقار الجديد عليها .

يقول الخطاب بالنص :

" عزيزتى مس سميدلى ...

أكتب إليك لأننا سمعنا مؤخرا عن طريق صديق فـى أمريكا عن مركب ينتج هناك وأشعر أننا يجب أن نجربه فى حالتك،وإسمه(....) وهو عبـارة عـن مـادة طبيعيـة موجودة فى الجسم، وهو لم ينتـج بوجـه خـاص لعـلاج السكر،ولكن التقارير تشير إلى أن له تـأثيرا فـى تقليـل الشعور بالتعب .. والذى يثير اهتمامى هو أننـى عندمـا فحصت دمك وجدت كمية كبيرة من حمـض البـيروفيك، وهذه المادة بالذات تزيد فى حالات التعب العضلى - وحيـث أننا استطعنا الحصول على كمية محدودة من هذا المركـب فاننى أظن أنه يحسن تجربتها معك، لنرى ماإذا كان يمكـن أن يؤدى إلى إنقاص مادة البيروفات فى الدم عندك .

وهى تعطى بالفم، وجميع المعلومات تشير إلى أنها مادة مأمونة تماما، وإذا رغبت فى تجربة هذا المركب فيعنى ذلك أنه لابد من حضورك لإجراء بعض الاختبارات عن الجلوكوز والانسولين فى جسمك قبل إعطائك العقار، وسوف تكرر هذه الاختبارات بعد أسبوع ثم بعد شهر من العلاج، والاختبارات سوف تجرى قبل تناول الإفطار أوالانسولين، وكل اختبار سيحتاج لأخذ ثلاثة عينات من وريدك، وسيقوم الدكتور م٠عرب الذى يعمل معى فى هذا البحث بأخذ العينات بنفسه .

أرجو أن تكتبى إلينا ردك فى خطاب وترسليه فى المظروف المعنون المرفق وبه طابع البريد- إذا كان لديك استعداد لذلك، مع أطيب تمنياتنا لك بالعام الجديد٠٠٠،،

أما التوقيع فهو بإسم الأستاذ جون بترفيلد -رئيس القسم شخصيا[١]

وكان هذا البحث يخصني، غير أن ضرورة إقناع المريضة بالتعاون معي كانت تستلزم طمأنتها من أعلى مستوى ...

وكان من الطبيعي أن أتعلم هذا الأسلوب في التعامل مع المرضى عند إجراء البحوث الطبية عليهم ...وتشاء المصادفات عند إجراء هذه البحوث أن تحدث بعض المفارقات ...وكان بعضها طريفا حقا، أما البعض الآخر فقد كان دراميا قاسيا كان على أن أجري ضمن ماقمت به من بحوث، دراسة على الدورة الدموية في الأطراف، وكان ذلك يحتاج لوضع المريض في أحد مراحل التجربة جالسا في مايشبه الحمام (البانيو) بحيث يغمر الماء الساخن

---

(١) الأستاذ جون بترفيلد كان رئيسا للقسم في الستينات ثم مديرا لجامعة نوتنجهام ثم أصبح اللورد بترفيلد بعد ذلك .

ساقيه، ثم نقيس سريان الدورة الدموية فى أصابع يديـــه، وكانت التجربة تستمر خمسا وأربعين دقيقة، وفـــى إحــدى مراحلها يتصبب المريض عرقا .

وكان لازما أن تجرى هذه التجارب على عدد مـــن المرضى وعدد آخر من الأصحاء للمقارنة، وهو الأســلوب المتبع دائما فى البحوث العلمية ..

وبــدأت أبحــث عــن متطوعيــن مــن الأصحــاء لإستخدامهم فى التجربة، وفى بعض الأحيان يجـد البــاحث صعوبة فى الحصول على العدد الذى يلزمه مـن الأصحـاء أكثر مما يجد فى الحصول على المرضى ... فما كان مـن الأستاذ بترفيلد رئيس القسم إلا أن وجدته يعرض علـــى أن يكون هو نفسه أول المتطوعين لذلك .. وكان منظـــره طريفا حقا- وهو يجلس فى المعمل فيمــا يشــبه البــانيو الساخن، ملتفا ببطانية ويتصبب عرقا ... وتمت التجربــة فى جو مرح للغاية .. وكان من الطبيعى بعد ذلك أن لا أجد

أية صعوبة في إقناع عدد كبير من الأطباء الزملاء والمساعدين الفنيين بالقسم للتطوع لاجراء التجارب عليهم بعد ذلك ٠٠٠لكن الأمر لم يكن دائما بهذه الطرافة٠٠

فعندما أردت أن اطبق التجربة ذاتها على عدد من المرضى المصابين بنوع معين من أمراض القلب الخلقية، وأمراض الصدر المزمنة، ذهبت لأحصل على قائمة بأسماء مايقرب من ثلاثين مريضا من سجلات المستشفى٠والسجلات هناك مبوبة تبويبا دقيقا بحيث يسهل على الباحث انتقاء أى نوع من الأمراض، وسرعان مايجد أمامه بيانا وافيا بكل حالات المصابين بهذا المرض وعناوينهم٠٠٠كان ذلك قبل انتشار استخدام الكومبيوتر لأداء هذه المهمة.

وأعددت خطابات رسمية وشخصية لهؤلاء الناس جميعا، ووقعتها باسمى وشرحت لهم فيها الأمر باختصار، وكنت أقدم نفسى فى كل خطاب كباحث علمى يعمل فى قسم كذا برئاسة الأستاذ بترفيلد، وأرغب فى عمل الدراسة التى

تقتضى كذا وكذا، وأن التجربة ســـوف تســـتغرق حوالـــى ساعة،وأننى سوف أرسل للمريض سيارة المستشفى لنقلـــه اذا أراد . .

ولم أكن أنسى أن أضع بجانب توقيعى صفـــا مـــن أسماء الدرجات العلمية التى أحملها حتى يطمئن المريـــض إلى مستوى من يخاطبه . . !

وكانت جميع رسائلى تحظى برد بصورة أو باخرى، وكانت نسبة الموافقين من المرضى على إجراء التجربـــة تزيد على ثمانين فى المائة منـــهم- إلا أن رســـالتين مـــن رسائل الرد التى وصلتنى لن أنساهما على الأطلاق . . .

تصببت عرقا من الخجل وأنا أقـــرأ رســـالة الـــرد الأولى، فقد كانت مهذبة وساخرة وبسيطة:

"عزيزى الدكتور . . . . كان يسعدنى أن أستجيب لك وأشارك فى دراستك التى لا أشك أنها مفيدة جدا ومثـــيرة، وأنت تريد أن تضع ساقى فى حمام ساخن أثناء التجربـــة . وهذا جميل، وكم كنت أتمنى أن أستطيع ذلك . . .

ولكنك تعلم انكم فى مستشفى جايز قد قمتم بعمليات بتر لساقى منذ سنتين .. ولهذا فاننى آسف .."

كانت غلطتى واضحة ومخجلة، ذلك أننى اكتفيت بالحصول على اسم المريض وعنوانه فراسلته دون أن أكلف نفسى عناء المزيد من فحص ملفه الشخصى الموجود بالمستشفى لمراجعته مراجعة دقيقة-كانت بغير شك سوف تنقذنى من الحرج والاساءة الى شعور هذا المريض، فقد كان الملف يحوى بالفعل بيانات عن عمليةالبتر التى أجريت لساقيه فى نفس المستشفى.

ولم تمض أيام قليلة بعد ذلك حتى داهمنى الرد على الرسالة الأخرى..

وكانت كاتبة الرد والدة المريضة التى أرسلت رسالتى باسمها، كانت رسالة مهذبة أيضا، تعتذر فيها الوالدة لأن المريضة قد توفيت منذ عام سابق ؛ وهى بذلك لن تستطيع المشاركة فى تجاربى ...

وكان الدرس بالنسبة لى موجعا .. فقد تسببت عدم الدقة من جانبى فى ايذاء شعور بعض الناس...

و مع ذلك فالغريب أن كلا من صاحبى الاعتذارين قد تجشم عناء الرد على، بالرغم مما كان فى ذلك من إيلام ولا شك لهما ... لكنه التصرف الحضارى الذى يثير الإعجاب. فالانجليزى- أوأى إنسان آخر متحضر - عندما يتلقى رسالة مهذبة أو أمينة وواضحة تطلب منه التعاون فى سبيل البحث العلمى أو أى عمل بنّاء فى أسلوب محترم، بانه يقابل ذلك باحترام متبادل فيجشم نفسه عناء الرد حتى لو كان فى مثل هذه الظروف...

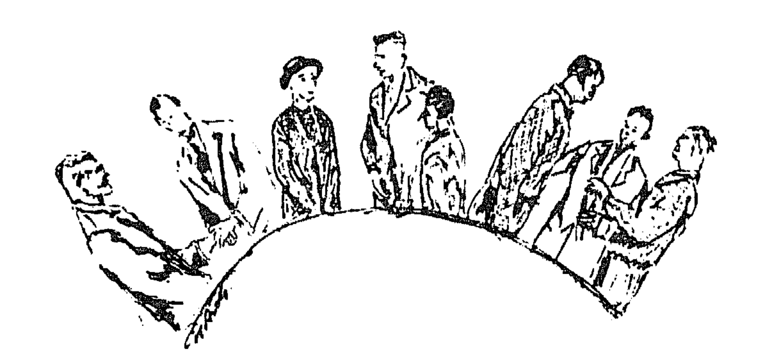
وغنى عن الذكر أن أصف رسائل الاعتذار الشديد التى بادرت بارسالها بعد ذلك للأسرتين .

ولا أستطيع أن أمنع نفسى من المقارنة بمواقف أخرى، ترتبط بعاداتنا فى تغذية سلة المهملات بما يصلنا من مكاتبات دون أن نهتم بالردعلى ماقد يكون جادا منها .

أما المكاتبات الحكومية فلها حديث آخر، فقد تصلك احدى رسائل الحكومة تطلب منك أن تفعل كذا وكيت، وتحذرك إن لم تفعل بأن يحدث لك مالا تحمد عقباه من الوقوع تحت طائلة القانون، أما اذا كتبت أنت مكاتبة إلى جهة حكومية مسئولة، وقد يكون فيها استفسار أو إقتراح مفيد بنّاء- فالأغلب أنك لن تتلقى ردا على الإطلاق، وعليك حينئذ أن تستنتج مفهوم الرد كيفما تشاء ...

الفصل الرابع

لقاءات مع الإنجليز





لقاءات مع الإنجليز

الإنجليز.. قوم دأبنا على أن نصفهم بالبرود ٠٠٠ ونحن لسنا وحدنا الذين نصفهم بهذه الصفة ؛ فكل شعوب الأرض وصفتهم بذلك، وكثير من القصص الأدبية تضم فى طياتها عبارة هنا أو تلميحا هناك تعبر عن هذا المفهوم العام٠

وبقدر ماآمنت بهذا التعميم بقدر ماتهيأت أيضا الفرص من خلال الاختلاط المباشر بأفراد الشعب الانجليزى أن تؤكد لى أيضا بأن هذا التعميم ليس صحيحا بصفة مطلقة، فمن الممكن جدا أن يكون بعض أفراد من هذا الشعب، أو جماعات منه، ودودين للغاية، تكتسب صداقتهم بسهولة ويسر ٠

ويمكن لهذه الصداقة أن تستمر بعد ذلك وتتسم بالمودة والصدق والحرارة ٠٠ وأول مراحل الصداقة تنشأ باللقاءات بين الناس، وصدق شاعرنا العظيم شوقى عندما يقول " نظرة فابتسامة فسلام، فكلام فموعد فلقاء ٠٠٠ "

فاللقاء هو آخر الطريق للتعارف وأول الطريق لما بعد ذلك من صداقة .

ولقد أتيح لى فى أوائل الستينيات أن ألاقى جماعات من الانجليز فى مناسبات مختلفة،تركت فى مجموعها لدى انطباعات متعارضة، من الإيمان بالبرود الانجليزى حقا من ناحية، وبحرارة الصداقة والتفاهم التى يمكن أن تقوم بين الناس من شعوب مختلفة- بما فى ذلك الانجليز أنفسهم - من ناحية أخرى ..

والإنجليز كشعب متحضر ومنظم فى حياته، يحرصون على تهيئة اللقاءات التى تمهد لتكوين تلك الصداقات، وخلق المناسبات التى تمكن من هذه اللقاءات .

ولعلهم فى ذلك يعلمون أن ترك الصداقات كى تنشأ ذاتيا من لقاءات عابرة قد يصطدم بما عرف عنهم من برود تقليدى، ولذلك فأنهم يحرصون على إيجاد العامل الوسيط، الذى قد يدخل فى التفاعل بين طرفين ليحول اللقاء إلى صداقة .

ولعلنا إذا تصورنا أن مصريا تقابل مع إيطـــالى أو يونانى مثلا فى أحد دواوين قطار مسافر وظلا معا ساعتين خلال رحلة القطار، فإن احتمال أن يتجاذبا أطراف الحديــث قبل أن يفترقا هو احتمال كبير، ولن يعجز الطرفان عــن أن يجدا وسيلة لبدإ الاتصال ؛ حتى ولو وقــف حــاجز اللغــة بينهما، فالناس دائما يجدون فى لغة الإشــارة أداة ناجحــة لذلك، ثم أن كلمة من هنا وأخرى من هناك بأى لغــة مــن لغات الأرض قد تشابه مقابلها فى اللغة الأخــرى فتكــون كفيلة بتهيئة وسيلة للتفاهم ...

أما إذا أنت جالست انجليزيا صميما، فحتى لوكنــت تتكلم الانجليزية بطلاقة فان المفهوم العام هو أنه ســيكون هناك حاجز البرود الانجليزى التقليدى يحول بينكما وبيــن التعارف أثناء الرحلة ...

وأما إذا كــان المســافران انجليزيــان، فــالأغلب والمنتظر أن يفتح كل منهما صحيفة، ينكب على مطالعتــها

دون أن يوجه كلمة واحدة إلى رفيقه حتى لحظة الفراق ...

وإذا نحيت جانبا العلاقات مع زملاء العمل،وسوف نتحدث عن هذا حديثا آخر، فقد عشت تجارب عديدة في لقاءاتي مع الانجليز، أختار هنا منها خمسة نماذج، حدثت في ظروف مختلفة، كنت فيها طرفا، وكانت أجهزة المجلس البريطاني هي ذلك العامل الوسيط النشيط الذي يعمل بدأب لتحقيق أحد أهداف قيامه، وهو تهيئة وسائل الاتصال بين أفراد الشعب البريطاني وبين أبناء الشعوب الأخرى، من خلال تنظيم لقاءات بين الوافدين عبر البحار وبين أهل البلاد، ليس فقط في محيط عملهم وإنما خارج محيط العمل أيضا ...

والنموذج الأول بسيط للغاية، ومباشر في أسلوبه، فأنت تتلقى دعوة لحفلة استقبال تنظمها إحدى الكليات أو الجامعات وتدعو لها عددا من الوافدين من جميع أنحاء العالم . وهناك تختلط الوفود ... ناس من مختلف

الجنسيات، من أوروبا وأمريكا وأفريقيا وآسيا ... ولقد دعيت بمجرد وصولي إلى لندن إلى أحد هذه اللقاءات في كلية سبيرجون Spurgeon College . وفي مثل هذا اللقاء تجد نفسك بين قوم يتحدثون جميعا اللغة الانجليزية، وتستطيع في مثل ذلك الجو أن تتصرف بإحدى طرق ثلاث ؛ الأولى أن تكون خجولا منطويا على نفسك، فلا تلاقي أحدا، ولا تتحدث إلى أحد، وإنما تنظر حولك وتراقب في سكون، وقد تتعلم من ذلك شيئا – أو لاتخرج على الإطلاق من هذا اللقاء إلا بضياع الوقت والقليل جدا من التجربة..

والثانية–أن تنتهز الفرصة لتلقى زميلا مصريا آخر يعمل ويدرس في جامعةأخرى، فتكون فرصة طيبه لتتعرف إليه، وتبدآن معا زمالة مشتركة ؛ قد تقوى كلا منكما في المستقبل على تحمل مشاكل الغربة ؛ ويمر الوقت وأنتما تتحدثان معا، وسيكون الحديث بالطبع باللغة العربية... وتثرثران كلاما كان من الممكن جدا أن يتم في النادى الثقافى المصرى أو في دار السفارة المصرية...

ولن يختلف الوضع كثيرا إن كان لقاؤك مع أخ من إحدى الدول العربية الشقيقة، فسرعان مايحن الدم للدم، والحديث يدور بعد ذلك بالطبع باللغة العربية أيضا .. وحصيلة التجربة من ذلك لاتكون صفرا، ولكنها بالطبع لن تكون محققة للهدف من حفل الاستقبال الذى خططوه بدقة لصالحك وصالح المجتمع البريطانى ذاته- وهو أن تتاح لك و للانجليز فرصة التفاهم الانسانى المشترك، فرصة لأن تفهم الناس الذين سوف تعيش بينهم عاما أو عدة أعوام، والذين سوف تتأثر، شئت أو لم تشأ- بثقافتهم وفلسفة حياتهم فيما أنت مقبل عليه من دراسة، وسيبقى لك وفيك أثر من هذه الثقافة زمنا طال أو قصر..

أما الاحتمال الثالث فهو أن تكون لماحا ذكيا، ففى مثل هذه الحفلات المخططة لا بأس من أن تنتهز الفرصة كى تعلم بوجود مواطن مصرى أو شقيق عربى، وتتعرف عليه ثم تحددان معا طريقة للاتصال فيما بينكما فيما بعد لتقوية هذا الرباط، فى مكان وزمان آخر،ثم تنفق معظم

الوقت بعد ذلك فى التعرف على الناس من الشعوب الأخرى، سواء الانجليز أنفسهم أو من بين الزائرين الآخرين، كـــى تنمو لديك الخبرة، وتتسع آفاق التجربة، إبتداء من اتقـــان الحديث بالإنجليزية إلى أبعد مـــايمكن أن تثمـــره تجـــارب اللقاءات الحية بين البشر من مختلـــف الثقافـــات والأذواق والمشارب والعادات..

ويبدو أن مخططي برامج اللقاء بين أفراد الشـــعب البريطاني وزائريهم من شعوب الأرض أذكى من أن يقتنعـوا بترك الأمور للصدفة وحدها، ولهذا فانهم لايكتفـــون بذلـــك النوع من حفلات الاستقبال، فهم ولا شك يعلمون أن هنـــاك دائما احتمالا بأن يتصف هؤلاء الوافدون بمثل ما ذكرت من انطوائية، أو تجمع ذاتى فيما بينهم دون أن يتحقق لقـاؤهم المباشر مع الإنجليز أنفسهم، ولهذا فهم يقيمـــون نموذجـــا ثانيا من هذه اللقاءات ... عشت منه تجربة مثيرة...

فقد تلقيت بعد وصولى ببضعة شهور، خطابا رقيقـــا يقول أن هناك نظاما لتمكين الوافدين من زيارة أفراد الشعب

البريطانى فىعقردارهم، وهو برنامج يطلقون عليه " قابل الشعب البريطانى" ·· وكثير من أفراد الشعب البريطانى يسعدهم أن يستضيفوا زوارا من شعوب أخرى لتناول الشاى معهم فى بيوتهم، حيث تكون هناك فرصة مباشرة متاحة لك كى تدخل البيت الانجليزى، وتتعارف مع الانجليز .

ولقد تنبهنا نحن المصريون إلى الأثر العميق والمباشر الذى تحدثه مثل هذه اللقاءات؛ فقامت فى بلادنا فى السنوات الأخيرة محاولات لإنشاء جمعيات أصدقاء السائح، لتحقق تنظيم لقاءات من هذا النوع بين أفراد مختارين من المصريين من أعضاء هذه الجمعيات يرحبون بدعوة السائحين فى بيوتهم أو نواديهم ···

وقد كانت لى تجربة مباشرة فى ذلك – فعندما تولى أستاذنا الدكتور أحمد السيد درويش رحمه الله وزارة السياحة بعد عمادة كلية طب الاسكندرية، طلب منى أن ننشىء فى الاسكندرية جمعية من هذا النوع،وتحمست جدا

لذلك ؛ وقامت الجمعية بالفعل وباشرت نشاطا طيبا ثم شغلتنا ظروف العمل عن الاستمرار فى هذا النشاط - إلا أن جمعية بهذا الاسم على ما أعتقد لا تزال تعمل بهمة ونشاط فى القاهرة وغيرها من المناطق السياحية .

وأعود إلى الدعوة التى تلقيتها لزيارة أسرة بريطانية فى قلب لندن، كانت الدعوة لى ولزوجتى معى، وعلمت فى نفس الوقت أنها وجهت أيضا لأستاذ يابانى وزوجته ولثالث لا أذكر الآن من أى بلد جاء ؛ كانت البطاقة تقول أننا مدعوون للقاء مستر ومسز فلان - فى شارع كذا - لتناول الشاى من الساعة الرابعة إلى الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر يوم كذا .. وذهبنا فى الموعد المحدد .. وكان اللقاء طيبا، وحارا جدا، وسيدة البيت سيدة إنجليزية مهذبة فى أواخر العقد الخامس من العمر متحدثة لبقة سألناها وسألتنا، وقابلنا أفراد الأسرة وتجاذبنا أطراف الحديث، وأحسسنا بمتعة حقيقية فى هذا اللقاء .

ومر الوقت سريعا، ولم نشعر بمروره، ونحن نحكى عن مصر بلدنا الحبيبة، ونجد الكل من حولنا يولوننا آذانا صاغية، يسألون ونحن نجيب، ونسألهم عن بلادهم وهم يجيبون ... ونعلم عن أحوال الانجليز وطباعهم الكثير..

ولعله من الطريف هنا ان تقارن بين طباعنا في مصر عندما نقدم لضيوفنا طعاما أو شرابا في منازلنا وبين طباعهم .. فنحن نلح على الضيف في أن يتناول هذا أو ذاك، "ونعزم" عليه بالحاح لنظهر مدى كرمنا وحفاوتنا به، أما هم فيقدمون لك نوعا من الطعام أو الشراب وقد يعرضون عليك الاستزادة منه بعد ذلك ؛ كأن تأخذ فنجانا ثانيا من الشاى أو قطعة إضافية من الكيك ...

وستكون مخطئا جدا إن كنت ترغب حقا في الاستزادة ثم تتعمد أو تتصنع الثقل،كأن تعتذر بأدب حتى تتأكد من إصرارهم، أو لتطمئن إلى صدق كرمهم، فالأغلب أن مضيفك سوف يصدق أنك لاترغب حقا ... ولن يعيد عليك العرض أو يلح عليك ... وقد تكون محظوظا فتأخذ

فرصة ثانية وأخيرة عندما يقول لك "هل أنت واثـــق أنـك لاتريد المزيد ؟ " ...فاذا ضيعت هذه الفرصة أيضا ولـــم تقبل المزيد على الفور فلاتلومن إلا نفسك على خروجك من الوليمة جوعانا أو عطشانا ..

وكنا نعلم عن هذه الصفات والتقـاليد قبـل تلبيـة الدعوة بالذات، فلم نضيع فرصة تناول الشـاى الانجلـيزى وملحقاته اللذيذة فى ذلك اليوم ...

كانت المناقشات قد بلغـت أوج حرارتـها وكـانت الجلسة ممتعة حقا، والجو مرحا ولطيفـا، عندمـا وجدنـا السيدة الانجليزية الرقيقة المهذبة، تنظر فجأة إلى سـاعتها، ثم تنهض واقفة وهى لاتزال تبتسم ابتسامة رقيقة وتقـول "الساعة الآن الخامسة والنصف .. أظن أنه يتعين عليكـم الانصراف .."

كانت صدمة شديدة لنا ... أن ينتـهى الاجتمـاع على هذه الصورة المفاجئة، وأن تأتى الرغبة فـى إنـهاء الضيافة من المضيف وليس من الضيف - كما هى عادتنـا

وعادة كل شعوب الأرض ... صحيح أن بعض الضيوف قد يكونون ثقلاء-فلايراعون حرمة الوقت ولاظروف مضيفهم – مثلما يفعل بعضنا فى بلادنا الشرقية فى كثير من الأحوال،بل قد تكون الزيارة لمريض يحتاج للراحة ومع ذلك يطيل الزائر من زيارته دون أن يجرؤ المريض على لفت نظره إلى ذلك بهذا الأسلوب المباشر الصريح ...

ولم نكن يومها قد تعدينا حدود اللياقة، فالساعة لم تكن قد جاوزت الخامسة والنصف إلا بدقيقتين فقط .

ولكننى تعلمت درسا فى الانضباط ... وأهم من ذلك فقد رأيت نموذجا .. لا أستطيع أن أقول أنه شائع فى السلوك الانجليزى ؛ ولكنه على الأقل ولاشك مقبول لدىالذوق الشائع هناك . وأغلب ظنى أنه لو حدث لضيوف إنجليز – لما أثار أدنى ذرة من الحرج أو الارتباك أو الدهشة التى حدثت لنا جميعا وقتذاك ...

* * *

والنموذج الثالث الذى أتذكره من تلك اللقاءات الممتعة مع أفراد الشعب الانجليزى، جاء على شكل دعوة وصلتنى أيضا عن طريق وساطة من المجلس البريطانى.

والداعى هنا كان أحد نوادى الروتارى المنتشرة فروعها فى أرجاء العالم ومنتشرة أيضا فى مدن وأقاليم مصر ولابد أن هناك عدة فروع فى لندن الواسعة الأطراف.

ونوادى الروتارى لها فى ذاكرتى مكان عزيز - ولو أننى لم أحاول الإنضمام إليها فى يوم من الأيام - فقد دعانى أحد هذه النوادى عام ١٩٤٨ عندما كنت طالبا فى السنة الإعدادية بكلية الطب إلى حفل تكريم، وقالوا لى وقتها أن نادى روتارى الاسكندرية قد اختارنى لهذا التكريم لأننى كنت الطالب الأول فى ترتيب امتحان شهادة الثانوية العامة بمنطقة الاسكندرية وكانت وقتها تسمى بشهادة التوجيهية.

وأقيم الحفل فى المدرسة الثانوية التى حصلت على التوجيهية منها، وقدم لى الروتارى يومها جائزة

مالية قيمتها ثلاثون جنيها .. وكان هذا المبلغ بمعيار ذلك الوقت ضخما جدا .. وقد غمرتني السعادة بحفل التكريم الذى رأسه ناظر المدرسة وأعضاء روتارى الاسكندرية ودعوا إليها أفراد أسرتي - غير أني لم أكن سعيدا عند تسليمي الجائزة المالية، فقد كنت أتمنى أن تكون الجائزة على شكل ميدالية مثلا أو أى شيء يمكن أن يدوم لأفخر به في مستقبل حياتي، وهداني تفكيري وقتها أن أصنع بنفسي مايحقق هذا الغرض فقمت بتصوير الشيك الذى يحمل لي المبلغ . والصورة الفوتوغرافية للشيك الذى يحمل اسمي - مازلت أحتفظ بها حتى اليوم ضمن أعز التذكارات.

ولهذا سعدت عندما وجدت نفسي مدعوا مرة أخرى للعشاء كضيف على نادى روتارى ديبتفورد Deptford في يوم ٢٨فبرايرعام١٩٦٢ . وكان مدعوا معي في نفس الوقت ضيف آخرهو أستاذ جامعي من سيلان ...

وعادت بى الذكريات إلى ماقبل ذلك بأربعة عشر عام، إلى حفلة روتارى الإسكندرية للشاب الصغير الطالب فى إعدادى الطب..

ولنوادى الروتارى فى اجتماعاتهم تقاليد يعرفها جيدا كل من يحضرونها معهم فهم يمارسون أعمالهم البناءة لخدمة المجتمع فى تلك الاجتماعات، ويتناولون طعام الغداء أو العشاء، ويدعون بعد ذلك شخصية من الشخصيات التى يستضيفونها للحديث فى موضوع يثير اهتمامهم..

وهكذا استقبلنى رئيس النادى فى ديبتفورد مرحبا، وتناولت العشاء مع الأعضاء بعد أن شهدت اجتماعهم - الذى لم يكن يختلف فى طقوسه عما شاهدته بعد ذلك من اجتماعات عديدة فى مصر - دعيت فى بعضها للحديث أكثر من مرة،وكنت قبل ذهابى إلى روتارى ديبتفورد أعلم أننى سوف أدعى لالقاء كلمة باعتبار أننى الضيف، وكنت أعد نفسى لأجد مدخلا مناسبا للحديث الذى سوف يتضمن أساسا الشكر على الضيافة. وقلت فى نفسى أننى ربما أستطيع أن

أبدا بأن أحكى لهم أيضا ذكرياتى مع الروتارى منذ فجر الشباب، وتعاطفى معه بالرغم من أننى لست عضوا فيه و قصة الشيك الذى أحتفظ به ٠

وقبل العشاء اقترب منى رئيس النادى وسألنى "أى موضوع سوف تحدثنا عنه؟ " ولم يكن فى ذهنى بالذات أى موضوع محدد، ولم أكن قد أعددت نفسى لذلك، ولكننى أسرعت قائلا " سوف أشكركم بالطبع، أما إذا أردتم موضوعا معينا فسوف يسعدنى أن أجيب على تساؤلاتكم عن مصر بلدى ٠٠" ولكن الرجل الماكر قال : " إسمع، إننى أريدك أن تحدثنا عن أزمة السويس " ٠

وكان ذلك غير معقول بالمرة - فقد كانت أزمة السويس Suez Crisis هى التعبير الذى أطلقه الانجليز على عدوانهم الذى اشتركوا فيه مع فرنسا وإسرائيل علينا عام ١٩٥٦ والذى اصطلحنا نحن على تسميته بالعدوان الثلاثى إثر قرار الحكومة المصرية بتأميم قناة السويس ٠٠

وكانت المدة التى انقضت منذ ذلك العدوان على بلادنا حوالى ست سنوات ولكن ذكريات هذا العدوان المرير لم يكن من السهل أن ينساها أى مصرى - بل إننى فقدت فى هذه الحرب شابا من أقاربى هو شقيق زوجتى- وكان ضابطا استشهد فى ريعان الشباب فى ذلك العدوان ..

ولكن مرورالزمن لم يكن قد استطاع حتى ذلك الوقت أن ينسى الانجليز - هم أيضا - تلك الأزمة التى عصفت بعد ذلك بحكومتهم وانتهت بسببها حياة مستر إيدن رئيس الوزراء السياسية .

كان الموقف حرجا للغاية فقلت لرئيس نادى الروتارى،هل هذا معقول ؟ أقوم لأشكركم على حفاوتكم بى فأتحدث عن موضوع حساس كهذا ..!

سوف لاتتفق وجهة نظرى على الإطلاق فيه معكم .. مالنا ومال السياسة فى هذا الجو اللطيف المفعم بالتفاهم والصداقة ..؟

كنت أود أن أعبر له بما يمكن أن نقوله في مثل هذه المناسبة باللغة العامية البلدى "ماتخلينا حبايب أحسن..!"

ولكنني وجدت منه إصرارا غريبا على إختيار هذا الموضوع بالذات فقلت له "أنت المسئول - إذا تكهرب الجو"، ولم أكن بالطبع من السذاجة بحيث أسمح للجو أن يتكهرب، ولكنني في الوقت نفسه لم أكن أملك إلا أن أعبر عن وجهة نظر بلادى ؛ وهذه الفرصة متاحة لى أمام نخبة من أرقى أفراد المجتمع البريطانى للحديث عن مصر أمنا العزيزة، وشرح وجهة نظرنا ...بهدوء، بدلا من الوقوف في حديقة هايدبارك - والصياح وسط جمهور قد يكون منه المثقف ومنه سواد الناس ...

كانت المعادلة صعبة ولكنى توكلت على الله وقبلت الحديث فى هذا الموضوع .. وعندما انتهى زميلى

الضيف الأستاذ السيلانى من كلمته قدمنى رئيس النادى للحديث ...

ووجدت نفسى قد طرحت تماما المدخل الذى كنت أنوى أن أبدأ به حديثى عن ذكرياتى مع الروتارى فى الاسكندرية وأختار بدلا من ذلك الدخول المباشر فى قلب الموضوع :

" لقد بدأ زميلى من سيلان حديثه الممتاز عن بلاده،فقال أنه عندما تذكر كلمة سيلان، فإن الانجليز يتذكرون على الفور الشاى السيلانى (لأن تناول الشاى مسألة تكاد تكون مقدسة فى حياة الشخص الانجليزى اليومية-وخاصة شاى بعد الظهر) ... أما أنا فلاشك عندى أنه عندما يذكر اسم مصرهذه الأيام فسوف تذكرون على الفور السويس ... أو على الأصح أزمة السويس ... " ودخلت فى الموضوع مباشرة ..

كان كل تركيزى فى الحديث على أن الشعب المصرى الذى آذاه العدوان على بلاده كان يتأسى دائما بما

يسمعه ويقرأ عنه فى الصحف والإذاعة والتلفزيون من وقفة الغالبية العظمى من أفراد الشعب البريطانى معه، واستنكارهم لأعمال الحكومة البريطانية، وماظهر من تواطئها فى ترتيب العدوان على مصر، فالمظاهرات الصاخبة التى كان يموج بها ميدان الطرف الأغر بلندن، والحركة الشعبية التى كان يقودها وقتذاك فيلسوف بريطانيا الشهير السير برتراند راسل كلها كانت موضع إعجاب، وتقدير الشعب المصرى لأفراد الشعب البريطانى الذى استنكر هذا العمل.... "

وأعتقد أنها كانت خطة موفقة، فقد قلت وقتها كل ما أريده من نقد فى قالب من المديح للشعب الانجليزى وموقفه الأخلاقى الرائع خلال أزمة السويس ..

وأحسست أننى كسبت الجولة تماما .

وفى مثل هذه المواقف – لابد أن يكون سلوك المصرى الداعى لبلاده فى الخارج هو السلوك الذى لا يلبس ثوب العصبية والتشنج، فالشعوب المتحضرة وخاصة

العقول المستنيرة فيها تستطيع تماما أن تنصت لكلمة العقل والمنطق - وقد تختلف معك فى كثير أو قليل مما تراه، ولكن الحوار الهادىء الذى يحترم فكر الطرف الآخر دائما ينتصر فى النهاية .

وحتى لو حاول الطرف الآخر أن يلجأ إلى أساليب الاستفزاز فى المناقشات السياسية أو الحساسة فان الداعية الحصيف لابد أن يضيع عليه الفرصة .

وقد حدث شىء من ذلك بالفعل فى هذا الاجتماع بالذات، فعندما ابتدأت مناقشتى كان من الواضح لى أن شخصا من بين الحاضرين لم يكن سعيدا بالجو السائد بين الحاضرين من اقتناع تماما بكل ماقلته عن مصر فى أزمة السويس، وماحققته مصر بعدها من انطلاق فى التنمية والتقدم فوجدته يسألنى وهو يتصور أنه يلقى قنبلة شديدة الإنفجار : " أنك قدمت لنا صورة عن التقدم الذى يحدث فى مصر الآن، ولكننى كنت هناك منذ أقل من سنة ووجدت أن الفلاح المصرى فى القرية عندكم لايزال يستعمل للإضاءة

شيئا بدائيا ... " - ثم وصف ماتطلق عليه في قرانا بمصباح "الشيخ على" ..

كانت مصر في الواقع يومها قد أعلنت إطلاق صواريخ من صنع مصر أسمتها القاهر والظافر. كما بدأت نهضة صناعية كبيرة ركزت عليها حديثي، ولم تكن صورة مصباح الشيخ على مما يتناسب مع تلك الخلفية المضيئة للنهضة المصرية .. ولكنني سرعان ماقلت " إن سنوات طويلة جدا من التخلف سوف تحتاج إلى عمل جبار لإزالة هذه الصورة البدائية، ولكن صحوة المصريين طالما أنها بدأت فإنها لاشك سوف تنهى كل هذا في يوم من الأيام .."

وأنا عندما أستعيد ذكريات هذا الحديث لأتذكر المحن والآلام التي عاناها بالفعل الريف المصري المتخلف ومازال يعاني منها، ولا أتصور وجه المقارنة بينه وبين الريف الانجليزي الراقي الجميل .

ولكن مصر التي مرت بمزيد من الآلام والمحن من حقها أن تملك آمالا طويلة في صحوة لهذا الريف الحزين -

وهى آمال ليست بكاذبة- فقد بدأت الكهرباء تغطى ربوعه وحتى الطاقة الشمسية -قد عرفت طريقها إلى بعض قراه...

ولكن المشوار طويل طويل، ومالم يفعل المصريون مافعله ويفعله الانجليز وغيرهم من الشعوب التى بنت أوطانها بأيدى أبنائها وبأظافرهم وأسنانهم فان زمنا طويلا قد يمر قبل أن لانستطيع إلا أن نتوارى خجلا من أحوال الريف المصرى ...

ولم تكن كل الدعوات التى تلقيتها للقاء الانجليز من ذلك النوع الأرستقراطى العالى فقد تلقيت دعوة طريفة من مجموعة أخرى من الانجليز البسطاء ينتمون إلى منظمة يطلق عليها اسم توك TOC ولا أعرف ماذا تمثل هذه الحروف وكانت دعوتهم الغربية تقول :

عزيزى الدكتور ... لقد علمنا بوجودك فى انجلترا وسمعنا بعض المعلومات عنك، ويسعدنا أن توافق على زيارتنا للحديث معنا عن مصر ...

والحقيقة أننا جماعة بسيطة جدا، ونحن نجتمع فى المساء لنتجاذب أطراف الحديث - وندخن ونشرب الشاى معا .. ونعقد اجتماعناالأسبوعى فى ورشة نجارة، تكون مشغولة جدا بالعمل فى الصباح، ولهذا فانك اذا وافقت على الحضور إلى اجتماعنا والتحدث إلينا - فنرجو أن لا تلبس أفخر ثيابك ؛ فلا لزوم لذلك مطلقا، ونحن جميعا من الرجل .... وسوف يشرفنا ويسعدنا أن تقبل دعوتنا .."

كان الخطاب ظريفا حقا ويتسم بالصدق والبساطة، ومكتوبا باليد على ورق أنيق مطبوع باسم النادى، والنادى فى بلدة تقع على بعد أميال خارج لندن - ويحتاج السفر اليها بالأوتوبيس الذى يربط لندن بالضواحي إلى حوالى ساعة ونصف الساعة . ولكننى لم أتردد لحظة واحدة فى الاستجابة وأرسلت لهم أوافق على الموعد الذى حددوه وكان بعد حوالى ثلاثة شهور من وصول تلك الدعوة إلى . وذهبت بالفعل فى الموعد المحدد إلى دكان النجارة الذى وصفوا

لى كيفية الوصول إليه بمنتهى الدقة فى خطاب لاحق، ولم أرتد أفخر ثيابى بالفعل ولكننى لم أذهب اليهم أيضا بأردئها ...

وكان اللقاء بعيدا كل البعد عما يمكن أن يوصف بالبرود الانجليزى فقد كان الترحيب بى حارا، ولمست فيه ما أكد لى شعورى المتكرر بأن الرجل الانجليزى البسيط أو المتوسط يضع الطبيب عموما فى منزلة عالية جدا .

و بادلتهم الشعور الإنسانى الصادق، وسعدت باللقاء و بالحديث معهم. كانوا حوالى خمسة عشر أغلبهم فوق سن الأربعين – وكنت بذلك أصغرالموجودين فى الاجتماع سنا .

ودار الحديث عن مصر الحضارة، ومصر التاريخ، وتدرج بنا إلى مصر الحاضر والمستقبل ؛ وكان لابد وأن ننزلق فى الحديث إلى السياسة .

قالوا لى بصراحة " لقد فرحنا بلقائك لأننا دعونا منذ عدة أسابيع ضيفا من إسرائيل حدثنا عن بلاده، وكان من الضرورى لنا أن نسمع وجهة النظر الأخرى من واحد من مصر . . . "

ولايمكن للإنسان المصرى المحب لوطنه، القادر على التصدى للدفاع عنه أن يهمل مثل هذه الفرصة كلما توفرت له، حتى بين هؤلاء الناس البسطاء، فكل واحد منهم له صوت لايقل عن صوت أى لورد بريطانى، والرأى العام هو مجموع هؤلاء الناس، والرأى العام البريطانى قوة رهيبة يحسب لها ألف حساب، والبحر الهادر ماهو إلا تجمع لقطرات من المياه . . .

ولعل ما أذكره جيدا من هذه المناقشة هو أن صاحبنا الاسرائيلى كان قد أذهلهم بما شرحه لهم من أن إسرائيل قد قامت بمعجزة تحويل صحراء النقب التى بقيت فى يد العرب مئات السنين فاستمرت تحت أقدامهم وأقدام جمالهم صحراء جرداء لاحياة فيها، ثم جاء الإسرائيليون

فحولوها بعد ذلك إلى جنات خضراء، فمن الذى يستحق البقاء فيها ... ؟ الذين تركوها تموت أم الذين بعثوا فيها الحياة الدافقة..؟

وكان لا بد من التصدى لهذه المغالطة السافرة، فنحن العرب مثلا لا نستطيع أن نطالب بتملك صحراء قاحلة كصحراء الأريزونا فى أمريكا، أو منطقة مستنقعات مثلا فى الجزر البريطانية بمجرد أن نحط رحالنا فيها ونستوطنها، ثم نعمل فيها ما نعمل لتتحول بعد ذلك إلى وطن لنا، ثم نقوم بطرد سكانه الأصليين من أمريكيين أو بريطانيين..

واستمر الحديث الطويل حتى همس أحدهم عندما جاء ذكر أن بريطانيا هى التى وضعت البذرة الأولى لقيام إسرائيل فى الوطن العربى ويتحتم عليها أن يكون لها دور فى تصحيح ذلك الوضع الظالم الذى أوجدت فيه العرب – همس قائلا " هل تعرف لماذا شجع الشعب البريطانى قيام إسرائيل .. صدقنى إن جزءاً كبيرا من دوافع ذلك بالنسبة للمواطن العادى –

هو رغبتـــه فـــى أن يرحـــل اليـــهود عـــن بريطانيـــا ٠٠ وليذهبوا بعد ذلك إلى حيثما يســـتطيعون أن يذهبـــوا ٠"

أما النموذج الخامس من لقـــاءاتى مـــع الإنجلـــيز خارج نطاق زمالة العمل فقـــد كـــان فـــى حفـــل العشـــاء الرســـمى الســـنوى الـــذى يقيمـــه المجلـــس البريطـــانى للأعضاء الوافديـــن عـــبر البحـــار، ولـــهذا الحفـــل ومـــا أعقبه من أحداث قصة أخرى، علقـــت بذاكرتـــى وحفـــرت فيها بصورة لايمكـــن أن تنمحـــى - وهـــى قصـــة تتعلـــق بالمواطنة والمواطن - وتســـتحق أن نوفيـــها حقـــا فـــى الفصل التـــالى ٠

الفصل الخامس

المواطن





المواطن ..

كلمة .. ترددها بين وقت وآخر من أوقات حياتك .. ولكنك ربما لن تعرف لها طعما حقيقيا، ولن تشعر بدفئها المريح إلا اذا كنت تعيش غريبا فى بلد آخر غير وطنك .. وبالذات عندما تصطدم عواطفك بظروف خاصة تفتح عينيك وأذنيك على معان وقيم ربما تكون قد مررت عليها من قبل مر الكرام .

وقد حدث لى مثل ذلك فى تلك الليلة التى دعُيت فيها إلى حفل العشاء السنوى الذى يقيمه المجلس البريطانى لتكريم أعضاء البعثات والوافدين الدارسين والأساتذة الزائرين من كل بقاع الأرض . كان ذلك فى إحدى ليالى شهر يوليو ١٩٦٢ ..

وأقيم الحفل فى كلية بدفورد التى تطل على ريجنت بارك ..

وكنت قد تلقيت الدعوة قبل ذلك ببضعة أسابيع، واشترطوا للحضور أن تكون البذلة غامقة اللون، ففصلت

بذلـــة خاصة لهذه المناســـبة، وأن يكــون ربــاط العنــق (الكرافتة) من النوع المميز لأعضاء المنح والمبعوثين عن طريق المجلس البريطانى - وهو تقليد لطيــــف أعتقــد أن الانجليز هم الذين ابتكروه للتعارف بيــن أعضـــاء النــادى الواحد أوخريجى الجامعة الواحدة أو الذيـــن ينتمــون لأى مؤسسة، فكل منظمة لها رباطها المميز ٠ وكانت الربطـــة المميزة للمجلس البريطانى من صناعة إحدى المؤسســات العريقة المتخصصة فى هذه الصناعة فى مدينة كمبردج ٠

وهذا الحفل السنوى يقام عادة برئاســـة شـــخصية كبيرة من شخصيات المجتمع، وكان رئيس الحفل يومها هو أحد أعضاء البرلمان البارزين وهو مستر بيتر تومــــاس - وكيل وزارة الخارجية للشئون البرلمانية، وكان هناك أيضــا عدد كبير من شخصيات الدولة، ورئيس المجلس البريطـانى وكان وقتها السير بول سنكلر ٠

و وجدت مكان مجلسى قد جاء فى المائدة الرئيسية إلى جوار زوجة رئيس الاجتماع، ولابد أنهم قـــد اختــاروا

واحدا من ممثلى الدول المختلفة أو القارات المختلفة لأن يجلسوه فى المائدة الرئيسية، ولا أعلم لماذا وجدت نفسى فى المكان الأول من هذه المائدة - ربما يكون من قبيل الصدفة فاسمى يبدأ بحرف A، أو ربما لأى سبب آخر .. المهم أننى رفضت أى تفسير لذلك الاختيار سوى واحد فقط جاء على هواى فى ذلك الوقت .. فقد كنت عند قرب نهاية إقامتى فى لندن قد حققت نجاحا واضحا جدا فى عملى، وتسرب إلىّ بصورة مباشرة التقرير الممتاز الذى وُضع عن نشاطى فى الجامعة ؛ وكنت أعلم أننى موضع معاملة خاصة من المجلس البريطانى، وليس أدل على ذلك من تلك الرحلة الطويلة عبر المدن البريطانية التى منحت لى والتى تكفل المجلس بدفع كافة نفقاتها ...

وانتهى العشاء الذى كان فاخرا جدا ومهيبا للمناسبة، فقد كان الاحتفال السنوى هو الخامس عشر من نوعه، بالإضافة إلى أنه كان بمناسبة مرور ٢٥ عاما على إنشاء نظام المنح بالمجلس البريطانى، وكان الحفل إنجليزيا تقليديا

بأقصى مايمكن أن تراعى فيه التقاليد من اقتراح الأنخاب والمجاملات المتبادلة بين المضيفين من الشخصيات الكبيرة والوافدين من مختلف الأعمار والأجناس والألوان ٠

وعندما خرجت من الحفل بعد انتهائه كانت الساعة حوالى العاشرة مساءا٠٠ كنت منتفخ الأوداج، أشعر أننى شخصية مهمة جدا ٠٠٠ولم لا فقد حققت فى بلاد الإنجليز نجاحا بارزا، وحظيت بتكريم واحترام يمسحان عن نفسى ذكريات أليمة طالما عذبتنى ونحن فى سن الصبا ومقتبل الشباب من نظرتنا إلى الانجليز على أنهم الناس الذين استعمروا بلادنا وأذاقونا أنواعا مختلفة من الإذلال، فأنا اليوم مصرى عادى بسيط، أعامل من انجليز غير عاديين فى مراكزهم الاجتماعية العليا باحترام وتكريم !٠٠ مسألة تبعث فى النفس الثقة، أو إن شئت الحقيقة وبأمانة، فانها كانت تبعث فى نفسى وقتها مايمكن أن يوصف بالخيلاء وغرور الشباب المبالغ فيهما ٠٠٠

وكان لابد أن أعود إلى منزلى بعد ذلك بـــالأتوبيس فلم أكن أملك بالطبع سيارة، وصعدت إلى الدور العلوى مـن أتوبيس لندن الأحمر الشـــهير، ومضـــى بـــى الأوتوبيـــس مايقرب من ساعة كاملة - وأنا سارح بخيالى وأحلامى فـى المستقبل،ولم لا وقد خيل لى غرور الشباب أننى قد غـزوت انجلترا فى قلبها النابض لندن، وأصبحت فيها إنســـانا لـــه شأن كبير .

وصحوت من أحلام اليقظة عندمـــا اقـتربت مـن محطتى فقمت لأستعد للنزول من الأتوبيس، و لأنـــزل مـــن الدور العلوى إلى الدور السفلى، كنت وقتئذ شارد الذهن فلم ألاحظ أن أشخاصا آخرين قد وقفوا أيضا وغادروا أماكنـــهم مثلى استعداد للنزول إلى الدور الأرضى.

كانت محطتى من المحطات الاختيارية فجذبت حبـــل الجرس قبل أن أسرع بالنزول حتى أضمن وصولى للبـــاب عند توقف الأتوبيس فى المحطة الاختيارية، وفـــى وســـط شرودى لم أنتبه إلى أننى فى اندفاعى قد تخطيـــت رجـــلا

أمامى اعتقدت أولا أنه يستعد للمحطة الإجبارية العادية التى تلى محطتى، فهو لم يجذب حبل الجرس ولم يبـد منـه أى دليل على رغبته فى النزول فى المحطة الاختياريـة التـى سوف نصل إليها أولا . . ولكن الرجل لم يترك هـذا الأمـر يمر ببساطة، ولم يكتف بأن ينظر إلى نظرة ذات مغـزى - كما يقولون- ليعبر عن استنكاره لأسلوبى الـهمجى ! فـى تخطيه فى الدور للنزول قبله . . .

والانجليز كانوا حتى ذلك الوقت يقدسـون مسـألة الدور والطوابير - ويكفى أن تتخطى دورك فـى أى مكـان لتتلقى من كل من حولك تلك النظرات القاسية التى تخـترق جسمك ونفسك لتحطمك تحطيما، وهذا هو أسلوب العقـاب التقليدى الهادىء فى أغلب الأحوال . . . ولكن هذا الرجل لم يكتف بذلك، فقد آثر أن يتحفنى أيضـا ببعـض العبـارات القاسية . ولاشك أنه كان معذورا فأنىّ لى أن أرى نظراتـه الجزائية وأنا أسير أمامه وهو خلفى و قد سبقته بـالفعل، كما أن الدنيا كانت شبه مظلمة! .

كان الرجل حاسما ونطق بجملة واحدة " لقد أصبحت هـــذه البلاد مليئة بالأجانب ... " ولكنه أودع فى هـــذه الجملـــة القصيرة كل نغمات التحقير، ودق على كلمة الأجانب بشـدة، حتى أحسست أن هذه الكلمة طلقة رصاص صـــدرت مـــن بندقية قاتلة اخترقت جسدى لتصيبنى فـــى صميـم القلـــب ...والرجل لم يزد على ذلك كلمة واحدة ...

كنت أشعر بخطئى، وكان من الممكـــن أن أعتـــذر، وأشرح له باستفاضة و بأدب أننى أردت المحطة الاختيارية فأسرعت لهذا السبب لأننى لا أريد تعطيل الأتوبيـــس ... الخ، ولكننى كنت قد أرتج على لسانى فخرست تماما، ولـــم أنطق بكلمة واحدة، ونزلت بسرعة مـــن الأتوبيـــس إلـــى الطريق، ومن خلفى ذلك الرجل الانجليزى الذى شتمنى بـأن وصفنى بأننى " من الأجانب" . ولم أســـتطع الـــرد علـــى ذلك ..

وكان من الممكن أن لايكون الأمر بذى بـــال علـــى الإطلاق، فالانجليز معروفـــون باســـتخدام لفــظ "أجنبـــى"

Foreigner للتعبير عن امتعاضهم وغطرستهم فى نفس الوقت، وعنهم تحكى النكتة المشهورة من أن انجليزيا صميما - عاد إلى وطنه بعد زيارة لإحدى البلاد الأوربية وعندما سألوه عما إذا كانت قد أعجبته قال : لا لم تعجبنى، وعندما سئل عن السبب-قال : إنها لاتطاق لأنها كانت مليئة بالأجانب .. It was full of bloody foreigners وهكذا وصلتنى رسالة الرجل الانجليزى، الذى كان مظهره يدل على أنه لاشىء على الإطلاق رجل من عامة الناس شتمنى .. ، ولكنه لم يطلق علىّ أى صفة سيئة، إنه وصفنى بأننى " أجنبى"، ولاأكثر ..

وهذا حقيقى تماما فأنا أجنبى فى هذه البلاد، وملامحى وشكلى لايمكن إلا أن يكونا لأجنبى- فلست أشقرا أزرق العينين مثل بعض مواطنينا المصريين الذين قد يختلط الأمر على بعض الناس فى أى مكان فيظنونهم من أجناس أخرى، أما أنا فلم أكن إلا مصريا بشكلى، وعلى الأكثر ربما يختلط الأمر على بعض الناس (وهذا ماحدث فعلا فى بعض

الاحيان) فقد يظنون أننى تركى أو إيرانى أو عربى من أى دولة أخرى غير مصر، أما أن يحسبنى أحدهم انجليزيا، فهذا مالم يحدث ولن يحدث أبدا ..

فلماذا إذن الأسى ؟ وماهو الخطأ فى أن أكون أجنبيا، أو أن يصفنى رجل انجليزى بأننى أجنبى؟ إن الرجل حتى لم يقل اننى Bloody foreigner كما يقول صفقاء الإنجليز ..

غير أن ظروف الزمان والمكان التى سمعت فيهما من يصفنى بأننى "أجنبى" كانت غير طبيعية بالنسبة لى، فها أنذا لتوى أعود من حفل تكريم خيل لى أننى نلت فيه نجومية خاصة بصفتى الشخصية وقدراتى الذاتية التى صورها لى خيالى و غرورى بأنها شىء ذو قيمة عظمى ومع ذلك ففى لحظة واحدة يأتى إلى مسامعى صوت كالرعد:

"أنت أجنبى"

نعم إننى أجنبى ... ولى الشرف أن أكون أجنبيا عندما أكون فى لندن أو فى أى مكان على وجه الأرض -فأنا مصرى ولن أرضى عن مصريتى بديلا .

ولكنى المعنى واضح، فأنا فى مصر وحدها أكون المواطن ..

وأما فى انجلترا أو فى فرنسا أو أمريكا فأنا أجنبى، قد أكون ضيفا ... وقد أكون ضيفا معززا مكرما ... ولكننى أبدا لست مواطنا، ومن يحاول أن يكون مواطنا بصورة أو بأخرى فإنه من المحتمل أن يكون مواطنا من الدرجة الثانية .

إن المواطن الحقيقى هو الذى تربى فى وطنه ؛ ونشأ بين قومه، قلبه معهم، آماله من آمالهم، ومستقبله هو مستقبلهم و آلامه هى آلامهم ..

ومهما بعد المواطن عن الوطن تبقى روحه فى هذا الوطن فهو فقط فى وطنه كالطفل فى حضن أمه، ومهما

علا شأنه فجذور المواطن الصالح مرتبطة بأرضه، وإنـــها للذة وأى لذة ان تكون فى وطنك وبين أهلك و مواطنيك ٠

وهذا الشعور يشتعل بالذات فى نفس المواطــن ذى الجذور الضاربة فى تربة بلاده كلما عاد إلى وطنه بعد غيبة طويلة كانت أو قصيرة عنه ٠

إنك مهما بعدت عن الوطن، ومهما حظيــت بمتعــة السفر إلى مختلف الأوطان، أو مهما رأيت وســـمعت مــن حضارة وتقدم بين الشـــعوب الأخـــرى، ومـــهما انبـــهرت بتكنولوجيا متقدمة فى مختلف البلاد، ومهما علا شانك بيـن أقوام آخرين، فأنت تشعر بالسعادة الحقة فقط عندمـــا تطــأ قدمك أرض الوطن فتنزع عنك صفة الأجنبى، أو الســائح،أو الزائر أو الضيف، أو غير ذلك من الصفات المؤقتة لتعود : "المواطن" ٠٠ هكذا بكل بساطة تكتسب لقبا قد يظنه بعــض السذج أمرا بسيطا ٠

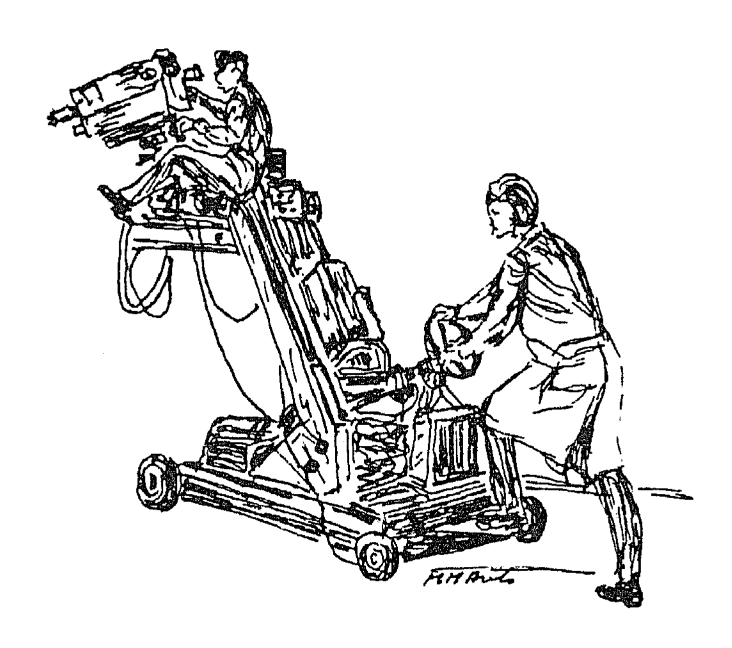
بل قد يحسبه بعض المنحرفين والشـــواذ – قليــل الشأن – فيبدون الاحترام لصاحب مال أو جاه وافد من هــذا

البلد أو ذلك، أكثر مما يبدون للمواطن الصالح، الذى لاتعدل فى نظرى قيمته مليونيرات العالم كله ..

وهكذا حفرت تلك الحادثة البسيطة التى أنزلتنى فى لحظة واحدة من خيلاء الغرور الكاذب،وأكدت لى صدق إحساسى بأن أحلى شىء فى الوجود هو أن يكون الإنسان مواطنا، وأن يكون له وطن يعتز به و يتألم لألمه، ويرتفع إلى أعلى قمة فى الدنيا، لا لشىء إلا ليخطف له من بريق النجوم باقة أمل، أو طاقة عمل يقدمها لهذا الوطن ...وفاء ومحبة وإعزازا ...

الفصل السادس

التلفزيون




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التليفزيون

لى رابطة قديمة مع ذلك الجهاز العجيب، الذى تغلغلت آثاره الخطرة فى كافة أمــــور حياتنـــا ٠ وعندمـــا غادرت مصر عام ١٩٦١ - لم يكن لدينا بعد فـــــى مصـــر تليفزيون، وعندما عشت فـــى لنـــدن واســـتقرت أحوالـــى، وأصبح فى إمكانى أن أحصل على تليفزيون خاص بمســكنى - كان ذلك عن طريق الايجار، ولا أذكر الآن كم شلنا كـــان يكلفنى ذلك فى الأسبوع - ولكنه كان ولا شك مبلغا زهيـــدا يستطيع أى إنسان محدود الدخل أن يتحمله، ولم يكن هنـــاك ضرورة بالطبع لشراء جهاز خاص، بل قل أيضا لـــم يكـــن هناك أى إمكان مادى متاح لذلك ٠٠!

ولم يكن التليفزيون بالطبع قد أصبح ملونا، كـــــان لايزال أبيض وأسود فقط، ولكنه والحق يقال كان ســـاحرا، كان يمكن أن أدخل مسكنى فتشدنى برامجـــه الواحـــد بعـــد الآخر حتى تنتهى هذه البرامج عندمنتصف الليل، وكان مـــن العسير مقاومة ذلك، ولكن كـــان لابـــد أيضـــا مـــن هـــذه

المقاومة- فهناك بعد العودة فى المساء أعمال هامة لابد من إنجازها .

كان أهم هذه الأعمال بالطبع مايتصل بشئونى العلمية، تلك المهمة التى اغتربت من أجلها، فقد كان على أن أكتب مسودات ماسوف ينشر من البحوث التى أقوم بها خلال النهار بمستشفى جايز، وأراجع النتائج ... والواقع أنه عندما قاربت مهمتى العلمية على الإنتهاء، أصبحت النتائج العلمية لبحوثى العديدة متراكمة أمامى .

ولابد للبحث العلمى المضنى من ثمرة يجنيها الباحث، وهذه الثمرة هى أن تنشر بحوثه فى إحدى المجلات العلمية، ولا بد لذلك من أن تكتب هذه البحوث قبل أن تنشر، ولابد لكتابتها من وقت متوفر وجهد كبير وتركيز عميق ..

وعلى ذلك فقد أصبحت هناك مواجهة لابد منها بين خيارين، بين متعة الثقافة والإعلام والتسلية التى يمنحها لى التليفزيون – وبين تحصيل ثمار جهدى المضنى – وهو

مالن يكون ممكنا إلا اذا توفر لى الوقت والهدوء اللازمين للتركيز فى تسجيل أعمالى .

ولعل هذا الصراع لايزال قائما حتى فى وقتنا الحاضر، بل إن حدته قد زادت فى حياة كل منا على مر الأيام .. فالتليفزيون اليوم رهيب فى أسلحته التى لا تقاوم وبألوانه وبرامجه المذاعة أو المسجلة عن طريق جهاز الفيديو . وأنا مازلت أمارس هذا الصراع من وقت لآخر، عندما يكون هناك ما يستحق المشاهدة فيه ويكون على فى الوقت نفسه أن أنجز عملا هاما ودقيقا يحسن إنجازه فى هدوء الليل – والحق أقول أن هذا الصراع ينتهى فى أغلب الأحيان لصالح العمل، ولكن ليس فى كل الأحيان...

وقد تكون أجهزة الفيديو قد حلت الآن هذه المشكلة، فالبرامج الجيدة يمكنك أن تسجلها وقت إذاعتها كى تشاهدها فيما بعد أى فى الوقت المناسب لك والذى لايتعارض مع عملك، والصعوبة الوحيدة أمام هذا الحل السعيد، هو كيفية توفير ذلك الوقت الخالى أيضا لمن يتحمل

مسئوليات الجامعة والعلاج والبحث العلمى وعشرات الأنشطة العلمية والثقافية والاجتماعية فضلا عن تدبير أمور الحياة اليومية ..

معادلة صعبة ... ولكنها ليست بلا حل، فالحل بسيط - ودائما خير الأمور الوسط، وتنظيم الوقت، والحسم فى إتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، فهناك وقت مناسب دائما كى تقوم إلى هذا الجهاز الرهيب وتسكته... ثم تبدأ أعمالك بهدوء ...!

ولقد كان علىّ فى أواخر أيام إقامتى فى لندن عام ١٩٦٢ أن أتخذ مثل هذا القرار، وأن أسكت هذا الجهاز إسكاتا تاما خلال الشهر الأخير من إقامتى .... وقد تم ذلك بكل هدوء.. فقد حملت الجهاز وأعدته لصاحبه ...

الحقيقة أن هذه الخواطر ليست هى القصة التى تربطنى بالتليفزيون رباطا مباشرا، والقصة الحقيقية هى أننى فوجئت فى بريدى فى أواخر مارس ١٩٦٢ بخطاب من مكتب الاستعلامات المركزى الذى

كان يقع فى وستمنستر بلندن بتوقيع المسئول الصحفى أو الإعلامى يخطرنى فيه بأنهم قد حصلوا على معلومات عنى من المجلس البريطانى، وأنهم يودون التعرف على أوجه النشاط التى أمارسها بالجامعة بالتفصيل لينشروا عنها شيئا فى الصحافة التى تصل إلى الدول النامية، عما توفره بريطانيا لزوارها من إمكانيات الدراسة والبحث العلمى والنشاط الثقافى وقد اقترحوا موعد اللقاء فى مكتبى بمستشفى جايز ...

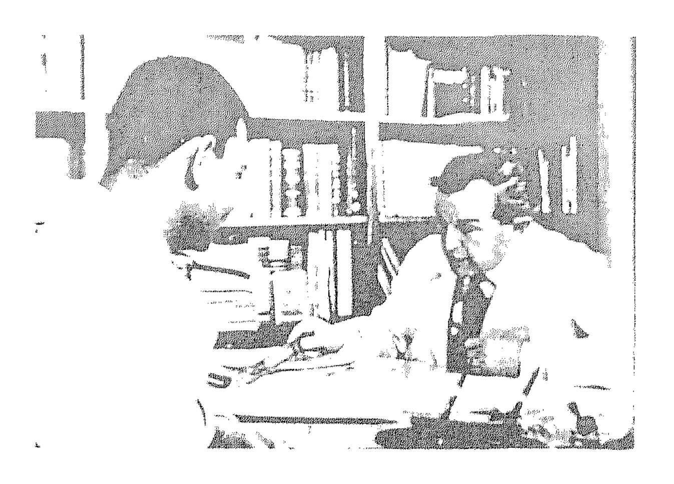
بالطبع سررت من هذا الخطاب، فأنا لم يكن قد نشرلى أوعنى كلمة واحدة فى صحيفة ما فى أى مكان حتى ذلك الحين، وسررت أيضا بأن أجد من يتتبعون أخبارى ونشاطى .. شىء طبيعى جدا لشاب فى الثلاثين أن يسعد بهذا الموقف..

وتم اللقاء بالفعل فى شهر إبريل مع رجل أسمه أندرو ولسون، ويبدو أن مستر ويلسون بعد هذا اللقاء وجد

شيئا يستحق اهتماما أكثر من جانب مكتب الاستعلامات فقد تحولت الفكرة من نشر فى الصحافة إلى طلب أن يقوم هذا المكتب بتسجيل برنامج ليذاع فى التليفزيون تحت اسم " يوم فى حياة طبيب مصرى فى لندن " .

كانت فكرة جميلة وبراقة، وأكثر من ذلك أنها ترضى المشاعرالطبيعية فى نفس أغلب الناس ... فهكذا بكل بساطة سوف يتغير مكانى من الجلوس فى مقعد المشاهد أمام التليفزيون، إلى داخل هذا الجهاز نفسه كبطل لبرنامج يذاع فى أماكن عديدة فى العالم – وتعبيربطل هنا ليس من قبيل المبالغة، فالبرنامج كما رسم السيناريو له يضع هذا الطبيب – الذى هو أنا – فعلا وبالضرورة موضع البطل، ويصبح كل ما يتعلق بعملى ومن يتصلون به بما فيهم حتى الأستاذ بترفيلد نفسه الذى أعمل تحت إشرافه مشاركين بصورة أقل فى إنجاز الفيلم ...





مع الاستاذ بترفيلد رئيس القسم (لورد بترفيلد فيما بعد)



... وسرعان ماتمت ترتيبات ذلك، واتفقنا بعد إخطار إدارة مستشفى جايز، وبموافقة الأستاذ بترفيلد نفسه، الذى أسعده جدا أن يشارك بالظهور فى الفيلم كذلك كل أعضاء القسم الذى أعمل به بما فيهم المساعدين الفنيين فى المعمل وحتى عاملة القهوة بالقسم.

وتم تصوير الفيلم، واستغرق ذلك يوما كاملا ...

ولم أكن أتخيل أن كل هذا الوقت والجهد يبذلان فى سبيل إتقان عمل سوف يستغرق عرضه على الشاشة فى النهاية وقتا لايزيد عن ثمانى دقائق، فقد استمر ترتيب تصوير هذه الدقائق الثمانية سبعة ساعات بالتمام، بدأت من صباح أحد أيام إبريل بتصوير لقطة تمثل دخولى اليومى عبر بوابة مستشفى جايز الشهير فى لندن بريدج ولقاء مع الأستاذ بترفيلد فى حديقة المستشفى حيث نتبادل التحية، ثم لقطات داخلية تمثل العمل فى المعامل وداخل عنابر المرضى وحضور المناقشات العلمية مع الزملاء والأساتذة..

وتم كل شيء على ما يرام ... ثم انقطعت أخبار مكتب الاستعلامات بعد ذلك ، وعلمت بعدها أن الفيلم أذيع بالفعل، ولم أتمكن من مشاهدته .. ولم يسعدنى ذلك تماما ... فقد كنت تواقا لأن أرى على الأقل الصورة النهائية لهذا الجهد الذى بذل ...

صحيح أننى قد استفدت أدبيا من ظهورى فى الفيلم ... وصحيح أن الفيلم دعاية طيبة لبلادى عن نشاط ناجح لطبيب مصرى فى لندن ؛ ولكن يبقى بعد ذلك كله أنه كان يسعدنى أن أشاهد الفيلم ولو مرة واحدة على الأقل ...

وقررت أن أحتج على ذلك، فقد استخدمونى كأداة لتحقيق غرضهم، ولا غبار عليهم فى ذلك، فهذا واجبهم، ولكن على الأقل كان من الواجب أن يطلعونى على الفيلم قبل إذاعته، فقد يكون لى فيه رأى يستحق الاهتمام ؛ بل وأننى تصورت أنه كان يجب أن أستأذن قبل اذاعته ...

ولقد كان لى فى واقع الأمر هدف أعمق من وراء الاحتجاج على تصرف كان ينقصه الذوق معى، فقد صممت على الحصول على نسخة لنفسى من الفيلم ذاته ... وقد قدرت أن هذا يحقق غايتين معا .. الأولى أن يلقن هؤلاء المسئولين درسا فى احترام وجهة نظر الآخرين والثانية أن أحصل لنفسى على تذكار لايقدر بمال عن هذه الفترة من حياتى فى لندن ،وعلى ذلك بدأت حملة منظمة، فكتبت وتحادثت وجادلت مع المسئولين فى مكتب الاستعلامات- ولم أعدم فى كل ذلك من الوسائل ما أقنع به هؤلاء الناس أخيرا بأننى على حق، وأنهم قد أخطأوا ... حتى بعد أن أفهمونى أننى لم أكن أول أو آخر من يشارك فى هذا النوع من النشاط ...، فقد كنت بالطبع أعلم ذلك وأقدره ... ولكن لم يكن يعنينى موقف غيرى من الناس ...

وعندما يعرف الانجليز أنك على حق، وأنك مصمم على استرداد هذا الحق، وأنك تناقشهم بأسلوب منطقى

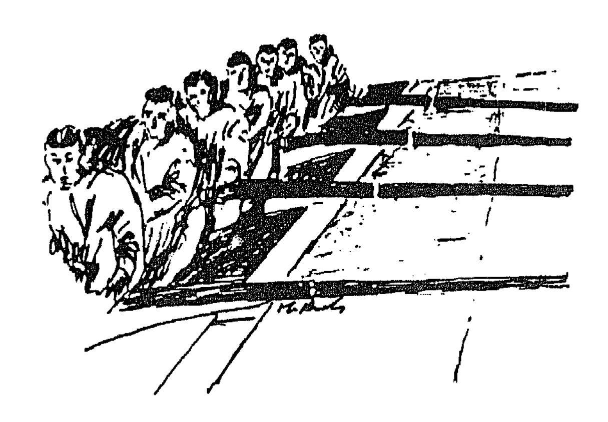
ومهذب ومتحضر ؛ فأنت تحصل دائما وبلا أدنى شك على حقك . . .

وهكذا كان . . فقد اعتذروا أولا، مع التسليم بوجهة نظرى فى أنه كان من الواجب إطلاعى على الفيلم قبل نشره، غير أنهم ادعوا أنه لن يكون من السهل فنيا إعادة طبع نسخة منه . .

وأمام إصرارى العنيد لم يكن هناك أمامهم بد من أن يجدوا الوسيلة الفنية لإعادة طبع نسخة كاملة من الفيلم على شريط ١٦ ملليمترا وإهدائها لى . . و قد عدت بهذا الفيلم وعرضته على زملائى وأصدقائى فى الجامعة، وما زلت احتفظ به واعتز به غاية الاعتزاز .

الفصل السابع

روح الفريق





روح الفريق

العمل الجماعى يحتاج لما نسميه روح الفريق .

وهو مايتحدثون عنه بالانجليزية فيقولون Team Work

ولقد رأيت الانجليز يطبقونه على أكمل وجه ...

وليس الانجليز هم الذين يفعلون ذلك وحدهم، بل تشاركهم فى هذا كل الشعوب المتقدمة فى الدنيا، وهؤلاء جميعا يمارسون العمل الجماعى بروح الفريق فى مختلف شئون حياتهم بكل جدية، لافرق فى ذلك بين عمل فريق يلعب كرة القدم فى الملاعب وبين فريق من العلماء الباحثين فى شأن من الشئون العلمية البالغة التعقيد فى أحد المعامل .

ولقد تابعت خلال مشاهدات استمرت لعشرات السنين، عملنا نحن المصريين داخل بلادنا كأفراد وجماعات، وعمل أبناء تلك الشعوب فى بلادهم كأفراد

وجماعات أيضا، ثم عملنا نحن المصريين عندما ينضم الواحد منا إلى جماعة تعمل فى تلك الدول الناهضة ... فرأيت من كل ذلك عجبا، وآمنت بعقيدة راسخة، وهى أن أحد أسرار تفوق تلك الشعوب علينا هو إيمانهم بروح الفريق فى عمل الجماعة، بينما تسيطر علينا فى أغلب الأحوال روح الفردية .

وأنهم يطبقون قواعد مرسومة لعمل الفريق دائما، تحقق لهذا الفريق أو ذاك الوصول إلى أهدافه المرسومة، بينما تفشل الشعوب المتخلفة فى تحقيق أهدافها لقصور فى تطبيق العمل بروح الفريق ..

والغريب فى الأمر أنه فى أغلب الأحوال، عندما يخرج المصرى منا، ليعمل فى مجال البحث العلمى أو فى غيره من المجالات فى إحدى الدول، فسرعان ما يتبدل الحال غير الحال، فيصبح الفرد المصرى شعلة من النشاط،وينقلب المصرى الذى كان خاملا فردى النزعة داخل وطنه ليصبح جادا مثابرا مجتهدا منتجا، بل فرعونا

صغيرا يتفوق على أقرانه الوافدين مـن مختلـف الـدول الأخرى، وعلى أبناء البلد المضيف فى أحيان كثيرة..

و قد يقال أن السبب فى ذلك هو توفر الإمكانيـات المتاحة لتفجير طاقات العمل والإنتاج، فالأمور هناك كلـها ميسرة.. وقد يكون ذلك صحيحا إلى حد كبير، إلا أن جزءا ضخما من هذا التغيير الخطير فى سلوك المصـرى الـذى أصبح فرعونا، ليس فقط لأنه توفرت له المعـامل الفخمـة والأجهزة المتقدمـة وإنمـا هـو نتيجـة لتوفـر المنـاخ المناسب..

وعنصر أساسى فى مانسـميه بالمنـاخ المناسـب هو سيطرة نظام دقيق للعمـل الجمـاعى لايسـمح للفـرد المتخلف أو المتهاون فـى عملـه - أو الـذى لا يـؤدى دوره فـى الفريـق بمنتـهى الالـتزام والدقـة، بالاسـتمرارفى هـذا الموقـف، ولـو حـدث ذلـك فـان المجتمع الجاد الدقيـق الـذى يحيـط بـه سـرعان مـا يلفظه- وقد يصل التزام هذا المجتمع الجـاد إلـى درجـة

من الصرامة الشديدة تتمثل فى شـــعار "أعمــل أو مــت " "Do or die" ! .

فإذا اجتمعت مجموعة أفراد من الانجليز أو الألمان أو الأمريكيين أو خليط من كل هؤلاء فإنهم يعملون بـــروح الفريق المتكامل، ليؤدوا معا عملا محـــددا، ولنفــترض أن عددهم كان خمسة أفراد، فإن حصيلة إنتاجهم لن تكون أبــدا مساوية لمجموع الناتج الحسابى البسيط لأعمالهم كـــأفراد، فإذا كان كل فرد منهم ينتج وحدة إنتاج واحدة مثلا فلا بــد أن تكون المحصلة النهائية لإنتاج الفريق المتكامل تزيد عن خمس وحدات فهى هى ثمانية وحدات مثلا، أو قل عشرة أو عشرين وحدة . .

ومع أننا نحن الذين نملك بفضـــل تراثنـــا وقيمنـــا الدينية العظيمة التى تؤكد لنا أن "يد الله مع الجماعـــة" . . . وأن ذلك يعنى بمنتهى الوضوح أن جماعة مؤمنة بعملـــها، جادة فى أداء هذا العمل متعاونة فى تحقيق الهدف ســتعطى

ثمرة إنتاج توازى بالفعل عمل أضعاف عــدد أفــراد تلــك الجماعة ... لأن يد الله تكون حينئذ فوق أيديهم ..

فهل هذا ما يحدث فى مجتمعاتنا حقا ؟ من المؤلــم أن القيم السامية والخلاقة التى زُرعت فى أرضنــا يطبقــها غيرنا بنجاح، ولا نحفل نحن فى كثير مــن الأحيــان- ولا أقول بالطبع فى كل الأحيان- بتطبيقها .

فالواحد من أفرادنا عندما يجتمع مع واحد آخر زائد واحد ثالث، قد لا تكون محصلة إنتاج الجميــع خمســة أو عشرة كما يجب أن يكون ؛ بل قد تكــون المحصلــة كلــها واحدا فقط، بل قد تكون صفرا عند حساب ثمرة الإنتاج..!

والسبب؟ إنعدام روح الفريق ... فاذا كان كل فــرد من الأفراد هو طاقة فى حد ذاته، وإذا لم تكن هذه الطاقــات جميعا موجهة فى اتجاهها الصحيح بتوافق دقيق فإن كــلا منها على حدة يشد فى الاتجاه الخاطىء- كل حسب هــواه ونظرته الفردية للأمور ؛ ومصالحه الذاتية، فتضيع الجــهود كلها أشتاتا... وتصبح المحصلة صفرا كبيرا..!

ولقد عشت تجربة العمل الجماعى بأروع ما تكـــون فى مجال البحث العلمى – ضمن عملى بقسم الطب التجريبى بمستشفى جايز بلندن . والبحث العلمى فى هـــذا القســم – مثله مثل كافة مراكز البحوث الجادة فى انجلترا أو غيرهـــا من بلاد العالم المتقدم– يقوم على أسس دقيقة، مـــن أهـــم مقوماتها– وبخاصة فى العصر الحديـــث – العمـــل بـــروح الفريق . إذ أن البحوث الفردية، مثلما كان يقوم به الـــرواد الأولون من علماء الطبيعة والكيمياء والطب وغيرها، قــــد أصبح من الصعب جدا أن تنتج اليوم شيئا ذا بـــال، حيـــث تضخمت فى هذا العصر دائرة المعارف واتسع نطاق العلـــم، وتشابكت دروبه .

فالوصول بصاروخ إلى القمر مثلا لـــم يتحقـــق إلا كنتاج لجهود آلاف من البشر، تعاونوا فى جماعات صغـــيرة أو كبيرة لإنتاج كل قطعة وكل جهاز من أجهزة الصاروخ .

والبحث فى أى مجال طبى متقدم اليـــوم بواســطة فريق من الباحثين لابد له أن يسلك نفس السبيل إذا أريد له أن ينتج تقدما ذا قيمة فى هذا المجال ،

وعندما كنت هناك قررّت قيادة البحث العلمـــى فـــى بريطانيا أن هناك حاجة لإجراء مسح طبى شـــامل لقيـــاس مدى انتشار مرض السكر بين أفـــراد المجتمـــع،ودراســـة متكاملة للمعدلات الطبيعية لمستوى السكر فى الدم وغـــير ذلك مما يتصل بمرض السكر، بين دراسات لايستلزم الأمـــر الدخول فى تفصيلاتها ولكنها كلها كانت تكوّن دراسة عميقة عن مرض السكر ،و عندما تقرر ذلـــك اختـــيرت مدينـــة بيدفورد Bedford فى شمال لندن وهى بلدة صغـــيرة جميلـــة تقع على نهر الأوز Ouse، وكان يســـكنها عندئـــذ حوالـــى خمسون ألف من السكان، وهى مركز لبعـــض الصناعـــات الزراعية وصناعة الآلات والسيارات ومواد البناء، ويعيـــش فيها عمال هذه الصناعات ،واختير للقيام بتجربة المســـح الطبى الشامل مجموعة فريق من الباحثين لتتولـــى جمـــع

وفحص عينات من البول من جميع سكان المدينة فى يــوم واحد محدد، ثم تقوم بعد ذلك بفحص الدم للحالات الإيجابية، ثم فحص عدد ضخم من الأفراد فحصا طبيا شــاملا، خــلال بضعة أسابيع تالية .

وكانت المجموعة التى وقع عليــها الاختيارلإتمــام هذه المهمة هى أفراد قسم الطــب التجريبــى بكليــة طــب مستشفى جايز بجامعة لندن - الذى كنت عندئذ أحد أفــراده .

وقد قام هذا الفريق بتلك الدراسة الشهيرة المعروفة فــى تاريخ المسح الطبى الشامل لمرضى السكر والتى تمت خلال عامى ١٩٦١-١٩٦٢، واستمرت متابعــة نتائجــها وقتــا طويلا بعد ذلك .

ولا أعرف ما يقوله على وجه التحديــــد- علمــاء النفس وخبراء علوم الاجتماع عن قواعد العمل الجمــاعى، ولكننى أستطيع أن أستنتج من واقع تجربتــــى الشــخصية قواعد أثق تمام الثقة أنها تكوّن مفتــاح النجــاح لتحقيــق

أهداف العمل الجماعى، ولعلنى أستطيع استخلاصها من تجربتى فى بدفورد ...

١) فلا بد أن تكون هناك فكرة محددة وراء العمل المطلوب، وهذه الفكرة هى التى تحدد الغرض من إجراء دراسة ما لتحقيق "هدف محدد". ولابد من أن يكون لتحقيق هذا الهدف فائدة أو "جدوى" تتحقق عند انتهاء مراحل العمل وقطف ثماره.

ولقد كانت الفكرة واضحة أمامنا ؛ إن نسبة انتشار مرض السكر فى ذلك الوقت كانت قد أصبحت غير مؤكدة – وحتى المعدلات الطبيعية المتعارف عليها فى مستوى سكر الدم بين الناس الأصحاء لم تعد موضع ثقة، بسبب قصور الوسائل القديمة التى تحددت على أساسها هذه المعدلات، ولذلك فالهدف كان إجراء مسح إحصائى شامل، على أسس علمية دقيقة لم تكن متوفرة من قبل ؛ وذلك كله يحقق فائدة مؤكدة وهى معرفة الأسس الطبيعية التى يمكن الاستناد اليها كمرجع لتحديد الظواهر المرضية .

٢) ولابد للعمل الجماعى من قيادة، فلا يوجد "فريق بدون" قائد"! والقائد قد يكون ظاهرا للعيان مثلما يظهر لنا المايسترو الذى يقف أمام فريق الموسيقين فى الأوركسترا عند عزف سيمفونية جميلة، وقد يكون القائد غير ظاهر للمشاهدين ظهورا مباشرا فى أثناء الأداء ؛ مثل كابتن فريق كرة القدم الذى نراه على أرض الملعب يؤدى دورا مثله مثل باقى اللاعبين، ويرتدى مثل أرديتهم ولكنه فى الوقت ذاته يوجههم وهو بينهم دون أن يشعر به جمهور المتفرجين . وكان فريق الباحثين فى بيد فورد بقيادة الأستاذ بترفيلد رئيس القسم نفسه...

ومثل أى قيادة سليمة، كان لابد أن يكون هناك قائد ثان.. احتياطا للظروف،يأخذ مكان القائد عند غيابه، أو يترك له القائد تنفيذ بعض التفصيلات الجزئية أثناء الأداء، لكنه يكون دائما جاهزا لتولى المسئولية

بأكملها إذا غاب القائد الأصلى، وهو لذلك فـاهم دائمـا لأبعاد المهمة كلها مدرب عليها ٠

وكان القائد الثانى فى فريقنا آنذاك هـو الدكتـور/ هارى كين، وهو رجل حلو المعشر ربطتنـى بـه علاقـة صداقة قوية وجلسات حوار ممتعة بعد أن تبين لنا أننا كنـا فى وقت واحد سابق عدوين متحاربين فـى منطقـة قنـاة السويس فى مصر، حيث كان هو يعمل طبيبا فـى جيـش الاحتلال البريطانى عام١٩٥٢ بينما كنت آنذاك متطوعا مـع جماعة الفدائيين المصريين الذين يحاربون قوات الاحتـلال فى ذلك الوقت ٠ أما الآن فهو أحد أشهر علمـاء مـرض السكر فى بريطانيا وفى العالم ٠

٣) وأفراد الفريق لا بد أن تجمعهم صفات سلوكية تؤهلـهم للانتماء إلى فريق متكامل، فليست كل خبرة فردية مهما علا شأنها بقادرة بالضرورة على ممارسة العمل ضمن الفريـق، وتحت القيادة المقررة، إلا إذا توفرت لدى الأفـراد شـروط "الإلتزام" بتحقيق الفكرة وإنجـاز الـهدف المحـدد للعمـل

الجماعى، وهو ما يستلزم قدرا من الطاعة لتوجيهات القيادة عند التطبيق، وليس معنى ذلك بالضرورة أن تكون تلك الطاعة عمياء، أو صورة طبق الأصل للطاعة العسكرية التى لاتناقش الأوامر الصادرة بل تنفذها فقط ؛ بل إن القيادة السليمة عندما تمارس مسئوليتها القيادية قد تحرص على أن يكون أفراد الفريق جميعا على وعى كاف بمدلولات الأوامر والتعليمات ومشاركين إن أمكن فى مرحلة التخطيط وإصدار القرار ٠

ومما يحقق نجاح الفريق فى مهمته أن تشيع روح الصداقة والمحبة بين أفراد الفريق، وأن تنعدم الأنانية والفردية فيما بينهم ٠

ولا يكفى توفر تلك الصفات السلوكية وحدها بالطبع لتكوين فريق ناجح، بل ذلك هو الاطار الذى يضم خبرات محددة تتوفر لكل فرد على حدة، فليس كل فريق من الأصدقاء الحميمين مثلا بقادر على عزف مقطوعة موسيقية بصورة سليمة إن لم يكن كل فرد منهم فى

الأساس خبيرا فى العزف على الآلة التى يمارس العزف عليها .

وهكذا بدأنا بالفعل مهمتنا العلمية فى بدفورد- فقد كان فريقنا متكاملا ، مكونا من أفراد يعرفون بعضهم البعض معرفة دقيقة، كان يساعد عليها أن تقليدا جميلا حرص عليه رئيس القسم، وهو أن يجتمع معنا مرة كل أسبوع بعد الظهر على فنجان شاى فى اجتماع يحضره كل أفراد القسم ابتداء من رئيس القسم وانتهاء إلى عاملة القهوة مسز كلينكر لنتشاور فى أمور القسم ويحدثنا الرئيس ونحدثه،ونعلم ماجرى وما سوف يجرى بالقسم....

وعندما وصل إلينا تكليفنا بمهمة القيام بالمسح الطبى فى بدفورد كانت هذه الاجتماعات الأسبوعية وسيلة فعالة لشرح المهمة بالتفصيل لنا، وتكوين الاستعداد السلوكى فى نفس الأفراد لقبول التحدى، والحرص على إحراز النجاح والالتزام بتوجيهات القيادة والتعاون فيما بيننا لتحقيق كل ذلك .

وبالطبع كانت لكل واحد منا خبراتة الخاصة التى يتقنها والتى كان عليه أن يساهم بها فى العمل الجماعى، فهذا طبيب، وذلك مساعد فنى والثالث كيميائى، وهكذا كل واحد له تخصصه المحدد .

٤) ولابد للعمل الجماعى الكبير من "خطة تنفيذية " ذات مراحل متعددة . وليس بالضرورة أن تكون هذه الخطة معروفة بكافة جزئياتها الدقيقة وتفصيلاتها لكل فرد على حدة؛ ولكن على كل فردأن يعرف أدق هذه التفصيلات فيما يتعلق بمهمته، ثم أن يستوعب بقدر طاقته ما يستطيع استيعابه من مجمل الخطة ودور الأفراد الآخرين، وخاصة هؤلاء الذين قد يتعين عليه أن يحل محلهم عند اللزوم ...

وفى مهمتنا كانت هناك مراحل متعددة،و بعضها كان سابقا بوقت طويل لليوم المحدد لتنفيذ الفحص الشامل نفسه، وهو مايسمى بمرحلة "الإعداد" .

وقد احتاج الإعداد مثلا فى هذا العمل إلى تهيئة الرأى العام – الذى شمل كل سكان المدينة– للفكرة، للحصول على أقصى درجة من تعاونهم معنا لإنجاح الفحص الشامل، واستدعى ذلك تجنيد كل وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة ونشرات، واجتماعات مع القيادات الشعبية المحلية... وتم كل ذلك بمنتهى الدقة قبل البدء فى اليوم المحدد.واحتاج العمل أيضا لحشدالأجهزة والمواد الكيميائية اللازمة للفحوص، ووسائل النقل ومختلف المستلزمات ابتداء من ورق الكتابة والأقلام إلى أدق الأجهزة اللازمة لفحص آلاف العينات فى أقصر وقت ممكن .أما التنفيذ فقد تم بطريقة غاية فى الدقة والتعاون الهارمونى بين جماعات مختلفة.

ففريقنا القادم من لندن إلى بدفورد تم تقسيمه إلى نصفين متساويين ؛ فريق الأداء يذهب إلى بدفورد للبقاء أسبوعا، فيقيم أفراده فى أحد الفنادق وينتقلون فى كل صباح بصورة منظمة إلى مواقع العمل ويعودون فى

المساء، ويستمر الحال لمدة أسبوع، لتأتى مجموعة الفريق الاخر فتحل محل الفريق الأول الذى يعود إلى لندن لمدة أسبوع، ويستمر هذا التناوب إلى أن تنتهى المهمة .

وكانت هناك بالطبع عشرات الفرق الأخرى التى تعاونت معنا فى إنجاز المهمة الكبيرة، وعلى سبيل المثال فإن فريقا ضخما من صبية المدارس وأفراد الكشافة كان عليهم أن يذهبوا إلى جميع بيوت المدينة فى المساء ليوزعوا على السكان علبا صغيرة من البلاستيك بقدر عدد أفراد كل منزل، ثم يعودون فى الصباح التالى، أى صباح اليوم المحدد للفحص الشامل لجمع هذه العلب التى تحتوى على عينات بول الآف السكان، لتسليمها إلى جماعات التحليل، وتقوم جماعات ثالثة ورابعة بالشئون الادارية والتنظيمية وهكذا . . .

و قد كان علىّ إلى جانب بعض الأعمال الادارية البسيطة أن أقوم بالكشف الطبى – ضمن فريق الأطباء – على الحالات الايجابية .

٥) والخطة السليمة لاتصطدم بالتطبيق السليم إذا كانت خطة واقعية، أما إذا كانت خطة خيالية وغير عملية، كأن تستهدف الحصول على نتائج لامعقولة ؛ أو أن لاتحسب حسابا للمتغيرات والظروف، أو لاتحشد من قبل أن تبدأ معركة التطبيق كل الإمكانيات البشرية والمستلزمات الضرورية- كما يحشد القائد الماهر إمكانيات النصر للمعركة الحربية- فإن مصير هذه الخطة يكون الفشل المؤكد . غير أن ذلك كله لابد أن يتم فى إطار من " المرونة"، وتوفر الخطط البديلة إذا جد عند التطبيق ما يستوجب ذلك .

ومع أنه فى تجربة بدفورد لم أجد أن سيارة قد تعطلت أو أن جهازا قد فسد، أو مادة من الموادالللازمة للتحاليل قد نفذت،أو أن فردا من الأفراد قد تعمد الهروب من مسئولياته- إلا أن توفر المرونة فى الخطة كان دائما كفيلا بالتغلب على ماطرأ من مشاكل أخرى لم يكن هناك بد من حدوثها، فالقيادة السليمة كانت قادرة باستمرار على

سلوك دروب جانبية للتغلب على المشكلات الطارئة والسير بالخطة مرة أخرى فى مسارها السليم.

وقد تم ذلك بصورة رائعة أيضا على مستوى الأفراد أنفسهم، فالفريق الناجح يتوفر فى أفراده استعداد كل منهم "للتغطية"، مثلما يحدث فى فريق يلعب كرة القدم بكفاءة، فلو أن حارس المرمى فى فريق الكرة مثلا اضطرته الظروف أو أخطا فترك مرماه بعض الوقت بلا حراسة فسرعان ما يندفع أفراد آخرون غير حارس المرمى نفسه لتغطية هذه المهمة مؤقتا، وقد يفعل ذلك ظهير أو مهاجم دون أن يفكر لحظة واحدة فى أن أسباب الخطأ أو القصور ليست من شأنه، بل إنه يحصر فكره وجهده فى تلك اللحظة أن تكون المهمة الأولى أمامه هى تغطية ذلك القصور أو الفراغ أولا...

* * *

واليوم كلما عادت بى الذاكرة إلى تلك الأيام التى عشت فيها ملحمة العمل الجماعى ضمن فريق بدفورد،

أتأمل قدرتى وقدرة زملائى ؛ وكثير من القيادات المسئولة عن الأعمال التنفيذية فى مختلف مجالات العمل فى بلادنا؛ سواء كان ذلك بحثا علميا كبيرا، أو عملا إنشائيا ضخما، أو تنظيما لخدمات عامة على مستوى شامل، أو أى عمل يحتاج لجماعة من الناس يعملون وفق نظام وتخطيط، وكلما فكرت فى كل ذلك تنتابنى مشاعر الرضا تارة والسخط تارة أخرى ....

ففى بعض الأحيان تتجلى فى أعمالنا روعة الأداء، وذلك عندما نستفيد نحن المصريون من روح أجدادنا الفراعنة، الذين بنوا أهرامات مصر بأسلوب المصريين الذى ما من شك فى أنه كان يطبق قواعد العمل الجماعى بكل أبعادها، وإلا لما كان من الممكن أبدا أن تقام هذه الصروح الشامخة لتبقى بعد ذلك آلاف السنين تتحدى الزمن والفناء على ذلك النحو الرائع.

ولكن ما يؤلم النفس أيضا أننا نشهد من وقت لآخر جماعة أخرى من أبناء وأحفاد فراعنة مصر، كل

منهم قد أثبت مقدرته الفذة كفرد منتج خلاق مجتهد فى أحد مجالات تخصصه، إلا أن الجماعة منهم عندما تلتقى فى عمل مشترك فسرعان ما يبدأ التصارع على السلطة فتضعف القيادة، ويتجلى الانفراد بالرأى، فيتلاشى التكامل والهارمونى بين أفراد الجماعة، ويسيطر ضيق الأفق وانعدام الخيال الذى كان يمكن أن يسمح بمرونة التطبيق فتنهار الخطة أمام أول صعوبة يقابلها التطبيق، ثم ينتهى الأمر بمحاولة كل فرد فى أن يلقى بمسئولية الفشل على فرد آخر من أفراد الجماعة، أوأن تتفق الجماعة أخيرا على التخلص من تبعة الفشل بالتعلق بأسباب أخرى فتتهم الظروف، أوالمسئولين، أو الحكومة، أو غير هذا وذاك من اللامحسوسات التى كثيرا ما نلقى على عاتقها بمشا كلنا ثم نعود فنستأنف التباكى على العمل الذى لم يحقق النجاح...!

ولِم كل هذا ؟ لأننا لم ننتبه بعد إلى ضرورة أن نزرع روح العمل الجماعى فى كيان أبنائنا فى المدارس

والجامعات، بل أقول فى تكوين أطفالنا فـــى البيــوت منــذ
نعومة أظفارهم، فالطفل أو الصبى الصغير فى منزل الأسرة
لو أنه تعلم منذ البداية أنه فرد مهم فى جماعة صغيرة هـــى
أسرته، وأن كل فرد فى هذه الأسرة عليـــه واجـــب مكمـــل
لواجبات الأفراد الآخرين فى هذه الأسرة، وأن عليـــه هـــو
الصغير أيضا مسئولية ما تحتاج منه لبعض البذل والعطـــاء،
لإقامة كيان تلك الأسرة- لو أن هذا الاسلوب التربوى قـــد
تحقق مثلا عن طريق تكليف هذا الصغير ببعـــض الأعمـــال
البسيطة التى تناسب سنه، ثم إشعاره بأهميتها فى تحقيـــق
التكافل فى بناء كيان المنزل - لو أن كل ذلك حـــدث لنشـــأ
الصغير، ثم شب بعد ذلك وروح العمل الجماعى وقواعـــده
وآدابه قد أصبحت جزءا من أخلاقياته وســـلوكه، فيصـــير
مواطنا صالحا وعضوا بناءا فى مختلف جماعات العمـــل،
سواء كان هو فى موقع القيادة أو فى أى موقع آخر...

وعندما أشاهد اليوم ذلك الحماس المجنـــون الـــذى
يبديه شبابنا لمتابعة مباريات كرة القـــدم، علـــى شاشـــات

التليفزيون أو فى الملاعب، ومناقشاتهم المحمومة بعد تلك المباريات، واهتمامهم الفائق بأخبارها فى قراءاتهم للصحف، ومواكبهم فى الطرق عقب فوز ذلك الفريق أو سواه، فإننى أتالم غاية الألم، ليس لأننى أكره كرة القدم، وليس لأننى لا أحب أن يعشق شبابنا الرياضية، بل إن العكس هو الصحيح تماما، لأن الرياضة أخلاق سامية، وهى أخلاق قبل أن تكون عضلات، وكرة القدم بالذات هى اللعبة التى تتمثل فيها روح العمل الجماعى بأروع مظاهرها ...

ومع ذلك فاننى أنادى بملىء فمى : "فلتسقط كرة القدم من حياتنا إن لم يتحقق منها هدفها التربوى، وإذا لم يكن من ثمارها إلا ذلك الهوس الكروى البغيض."

فالهدف من تشجيع انتشار الاهتمام بكرة القدم والرياضة بوجه عام- فى نظرى يجب أن يكون أولا هو تربية الشباب على "التفكير" بروح الفريق " والعمل" بروح الجماعة "والسلوك" به أيضا، أما أن يمارس شبابنا ذلك الاهتمام الزائد بمتابعة مباريات كرة القدم ثم عندما تنفض

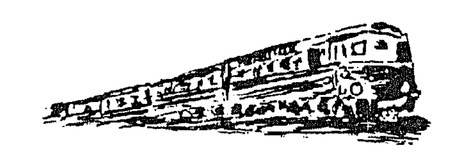
تلك المباريات ينطلقون فـــى أداء شـئون حياتـــهم بذلـــك الأسلوب الفردى، وتلك اللامبالاة التى يتقلص فيها الـــتزام الفرد داخل الجماعة، والتى يلقى فيها كـــل إنســـان عـــبء واجباته على سواه بدلا من أن يتكامل مع زميله بل ويغطـــى قصور هذا الزميل على الفور، أوأن تسيطرعليه تلك الـــروح الـهدامة التى فى كثير من الاحيان ما تدفع الفرد منهم فيعمل جهد طاقته على تقويض أعمال الأخرين بدلا من الإضافـــة اليها وتقوية دعائمها...

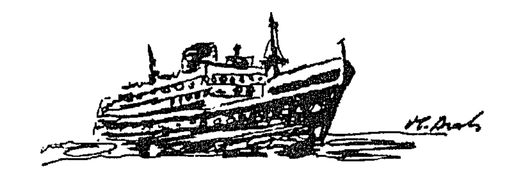
أما أن يحدث كل ذلك ولا يستطيع فـــرط الاهتمـــام بالرياضة وبمباريات كرة القدم أن يفعل شيئا يحقق به بنـــاء روح الفريق، فإننى أعود فأصيح بأعلى صوتى مرة أخرى : "فلتسقط كرة القدم التى لاتحقق فى حياة وطننا هدفا"!!...



الفصل الثامن

استكشاف بريطانيا







استكشاف بريطانيا

أوكسفورد ، كمبردج، ليفربول، برمنجهام، مانشستر، ادنبره – جلاسجو وغيرها كثير من مدن بريطانيا العظمى ... كانت كلها أسماء ترددت على أذنى منذ الصبا ، مرة من مدرسى الجغرافيا ، ومرة أخرى من مدرسى التاريخ ، فتلك مدينة تميزت بالصناعات البريطانية المشهورة التى ارتبط اسمها بتاريخ بلادنا طويلا ، مثل صناعة الغزل والنسيج ، فطالما استغلت بريطانيا مصر خلال عهود الاحتلال كمزرعة تمدهم بقطننا الممتاز،ثم يعودون إلى تصديره إلينا بعد ذلك مصنوعا ليستنزفوا بذلك ثرواتنا، وتلك مدينة أخرى تشتهر بتصدير الفحم أو صناعة الصلب أو ما إلى ذلك، ومدرسو التاريخ أيضا علمونا شيئا عن تاريخ ملوك انجلترا من أسرة ستيوارت وتيودوروملوك اسكتلندا ، وعصر كرومويل الحديدى وحرب التحرير فى ايرلنده الجنوبية التى استقلت أخيرا عن التاج البريطانى ....

وكنت أيضا أسمع فى مرحلة الصبا ومقتبل الشباب عن الجامعات البريطانية العريقة فى اكسفورد وكمبردج

وإدنبره ، وكانت عبارة "زميل بكلية الأطباء الملكية بلنـــدن أوإدنبره " تتصدر ألقاب العديد من صفوة الأطباء فى مصر . وهكذا كان لأسماء المدن البريطانية رنة خاصة تنطلق مـــن أذنى مباشرة إلى وجدانى ... كان هنـــاك شـــعور طـــاغ يتغلغل فى نفسى يجعلنى أتمنـــى أن أزور هـــذه المـــدن جميعا .

وعندما اقترب خريف عام١٩٦١ كنت قد أمضيت فى لنـــدن حوالى عام كامـــل ،عايشت فيه الحياة البريطانية بقدر كبير من العمـــق ، فقد عملت فـــى أحـــد أعـــرق مستشـــفياتها الجامعية، وزرت إلى جانب ذلك العـــديد من مستشـــفيات العاصمة، الحديث منها والتقليدى القديم فســـررت يومـــا أو بضعة أيام بمستشفيات الهمرسميث والرويال فرى وســـانت توماس وكنجز كولج ويونيفرستى كولج ... أما أوقـــات فراغى وإجازاتى فقد استثمرت كل ساعة منها فى معايشـــة المجتمع الانجليزى،فدخلت بيوت الانجليز من أهل لنـــدن ، وناقشت أعضاء النـــوادى بلنـــدن ومـــايحيط بـــها ، زرت المتاحف كلها والمسارح جميعا ،وســـرت فـــى شـــوارعها وحواريها ، فعرفتها بمـــا يفوق أضعاف ماكنت أعرفه حتى

ذلك الوقت عن القاهرة التى لم أكن قد أمضيت بها خـــلال فترات الزيارات المتقطعة إلى مايصل فى مجموعه إلى عشر الوقت الذى عشته فى لندن ...

وكان الفضل فى تلك الإحاطة الدقيقة بكل شــىء ، وفى سهولة ويســر،يرجع إلى حد كبــير لتوفــر الخرائــط وكتب الإرشاد السياحى والنشرات المصــورة التى تضع كل ذلك أمامك بغير عناء ...

وهكذا كنت وقتئــذ قد تشبعت بلندن وشبعت منها ، وأصبحت فى شوق جارف للتجربة خارج لندن ، وكان مــن الضرورى لذلك أن تتحول أكسفورد وكــامبردج وإدنـــبره وكل تلك الأسماء أيضا إلى حقائق مادية أراها وألمسها ..

كنت تواقـــا للذهـــاب إلــى هــذه الأمــاكن لأزور مستشفياتها وجامعاتها وأرى مبانيها الأثرية وأمشـــى فـــى طرقاتها وأتكلم مع أهلها ...

ولم يكن أمام ذلك من سبيل إلا إعداد رحلات لــهذه المــدن تكلفنى مالاطاقة لى به .. وكان أقصى مــايمكــن عملــه وقتذاك هو تدبير بعض الرحلات القصيرة التى كـــان مــن الممكن أن تتم خلال يوم واحد فى عطلة نهاية الأسبوع إلى

احدى المدن القريبة مثل اكسفورد أو كمبردج على أكثر تقدير ...

وفجأة جاءت الفرصة الكبيرة التى كنت أحلم بها ، وعندما حدث ذلك أمسكت بها بيدى وأسنانى كما يقولون ...

جاءت المفاجأة عندما دعانى ضابط الإتصال بالمجلس البريطانى ، ليخبرنى بما عرفه المسئولون بالمجلس من خلال تقرير وصلهم من الأستاذ بترفيلد عن النشاط المميز فى البحث العلمى الذى قمت به خلال عام متواصل من العمل الجاد بمستشفى جايز ... وقال لى ضابط الاتصال أنه لذلك يبلغنى بأنه إذا كان هناك ثمة مراكز علمية أخرى أرغب فى زيارتها بالمملكة المتحدة خارج لندن فإنهم يوافقون على ذلك وسوف يتولون تنظيم رحلتى والإنفاق عليها ....

كانت مفاجأة ضخمة بالطبع ، وكانت سعادتى بذلك غامرة ، فطلبت مهلة لبعض الوقت لأقوم بإعداد قائمة بالمراكز العلمية التى أود زيارتها لتبادل الخبرة مع من فيها .

ولم أضيع وقتا فى محاولتى للتشبث بتحقيق حلمى الكبير فى أن أرى كل مدينة بريطانية سمعت أو قرأت عنها

من قبل فى دروس الجغرافيا أو التاريخ ،ووضعت أمامى خريطة للجزر البريطانية - مازلت أحتفظ بها حتى الآن- وصورت عليها رغباتى بلا حدود أو قيود: اكسفورد -كمبردج-برمنجهام - مانشستر -ليفربول - ليدز - جلاسجو-أدنبره وإحدى مدن ايرلنده الشمالية ولتكن بلفاست . . .

وكانت خطتى الماكرة لتحقيق ذلك بسيطة جدا ، وهى أن أقرر أولا المدينة التى أرغب فى زيارتها ، ثم أتقصى بعد ذلك عن المراكز الطبية الشهيرة التى توجد بهذه المدينة أو تلك ،وبعد ذلك أتحرى المعلومات عن شخصية ما فى هذا المركز أو ذاك يكون له صلة من حيث الخبرة العلمية بالموضوعات التى تناولتها بحوثى ودراساتى فى مجال مرض السكر والدورة الدموية أو الروماتزم المفصلى وهى المجالات الثلاث التى تناولها نشاطى العلمى وقتئذ ، ثم أطلب بعد ذلك زيارة هذا الأستاذ أوالباحث فى مدينة معينة للحصول على خبراته ومناقشته أثناء الزيارة . . . . .

ولم يكن أمر تنفيذ مثل هذا الخطة سهلا بالطبع ، ولكنه لم يكن أيضا مستحيلا ، فهناك دليل كنت قد عثرت عليه

بمعاونة زميل اسكتلندى كان يعمل معـى بنفـس القسـم ، أسعده أن يمدنى أيضا بمعلوماتـه الشـخصية عـن مـدن اسكتلندا ذاتها . . .

وهذا الدليل يضم أسماء العلماء المتخصصيـن بالجامعـات ومراكز البحث الطبى ، ومجال تخصص كل منهم والأمـاكن التى يعملون بها مع العناوين الخاصة وملخص بسيط عـن التاريخ العلمى لكل منهم .

بعد ذلك قمت باعداد خطتى الخبيثة بالمقلوب ،فقـد بـدأت برصد قائمة طويلة بأسماء علماء وأساتذة افترضت أننـى أرغب فى مقابلتهم ، مما يستدعى بالضرورة الوصول إليهم فى أماكنهم بتلك المدن . . .

ومع أن رغبتى فى لقاء هذه القائمة مـن العلمـاء كـانت صادقة وحقيقية، وكانت تخدم أهدافى العلمية تمامـا ، إلا أن رغبتى الأخرى الماكرة كانت تكمن فى مجرد الوصول إلـى هـؤلاء الناس ، أو على الأصح إلى المـدن التى يعملـون بـها ، وليكن بعد ذلك مـايكون . . . فـإن تحقـق لـى الاستفادة العلمية المطلوبة من خبرتهم يكـون ذلـك شـيئا عظيما ، وإذا لم تتحقق الثمرة العلمية بالمستوى المرغـوب

فلا باس ، لأن رغبتى فى السياحة العلمية-إن شئت الصدق فى التعبير- تكون هى التى قد تحققت على الأقل..

و بعد مرور مايزيد على أربعين عـام مـن تلـك الأيـام ، وحضورى لمئات المؤتمرات العلمية فى مختلف دول العـالم، قد تبين لى بالفعل أن السياحة والعلم متلازمان،فكل منـهما يمثل جانبا من الرغبة فى المعرفـة ، وأغلـب الجمعيـات العلمية الدولية تتفنـن فـى اجتـذاب أعضائـها لحضـور المؤتمرات العلمية بعقد المؤتمرات الدولية فى أماكن متفرقة من أرجاء العالم ، وتحيط برامجها العلمية بجـو سـياحى ونشاط اجتماعى وحفلات واستقبالات تجعل متعة السـياحة ملازمة لمتعة العلم ، أو على الأصـح لتخفيـف المعانـاة العلمية المصاحبة لتلك المؤتمرات ، التى يحتاج حضورهـا إلى جهد كبير فى الاستعداد لـها مـن جـانب البـاحثين ، والتركيز الذهنى لمتابعة مايقال ويعرض بها مـن بحـوث ودراسات ....

وضعت خطتى وتوكلت على الله ...

وتوجهت إلى شارع ديفيز لمقابلة ضابط الاتصال المسـتر ريد ، واستقبلنى الرجل بالترحاب المعتاد ، وتصنعـت مـن

ناحيتى كل الجد فى إطار من البراءة وأنا أعرض عليه القائمة الطويلة التى تضم مايقرب من خمسة وعشرين شخصية علمية فى أحدعشرمدينة بريطانية مختلفة ٠

وما إن انتهيت من قراءة القائمة حتى فغر الرجل فاه فى استغراب واضح وبادرنى قائلا: دكتور"آراب" هل أنت جاد فى تحقيق ذلك حقا – أو بمعنى أصح هل تأمل بالفعل فى أن تحققه ؟

وتصنعت الدهشة قائلا : ولم لا يامستر ريد ؟

قال : لأنه كثير ٠٠٠ كثير جدا ، ولايمكن أن يموّل المجلس البريطانى هذه الرحلات الطويلة العديدة فى طول البلاد وعرضها ٠٠٠٠

وفجأة وجدت أن قدرتى على المراوغة قد أصبحت صفرا ، لقد عشت مع هؤلاء الناس مايقرب من عام كامل ، وقد اكتشفت خلالها أن الصدق والصراحة أجدى على المدى الطويل فى التعامل معهم ٠٠٠ على الأقل كان هذا حالهم فى أوائل الستينيات ٠٠٠

ووجدتنى فجأة أقول " اسمع ياسيدى، الحقيقة أننى عشت هنا فى لندن، وأحببت حياتى بها جدا ، واستمتعت بذلك

متعة حقيقية وقد حققت مهمتى ما أنا راض عنه تماما حتى الآن ۰۰۰ولقد طرقت كل شارع وحارة وزرت كل متحف وحديقة، وأنا الآن أرغب فى أن أعرف المزيد عن بريطانيا كلها وليس عن لندن وحدها ۰۰۰ أريد أن أرى الاسكتلنديين فى اسكتلندا وليس كزملاء لى فقط فى مستشفى جايز،وأن أرى الإيرلنديين فى أيرلندا وليس فقط بصفتهم أصحاب المسكن الذى أقطنه بلندن۰ أريد أن أرى المدن البريطانية ۰۰۰ وبصراحة يامستر ريد لقد وضعت خطتى على هذا الأساس۰۰۰۰

ثم شرحت له بكل الصدق والأمانة ماكنت قد دبرته وخططت له بالتفصيل۰۰۰۰۰

ويبدو أن جرعة الصدق ، مع حرارة الدفاع عن فكرتى كانت ملائمة تماما ، فقد تراجع المستر ريد فى مقعده ، وصمت فترة ثم نظر إلى نظرة طويلة نفذت إلى أعماقى قبل أن يقول : "اسمع ، إننى سأكون إلى جانبك ۰۰۰۰لكن إعلم أنها أول مرة أقابل فيها وافدا من الخارج يعرض فكرة جهنمية كهذه، وبهذا الأسلوب المباشر الصريح ۰۰اعتقد أن إقرار ثم تنظيم برنامج بهذا الشكل الباهظ التكاليف

سيكون أقرب إلى المستحيل ، ولكننى أعدك أن أحقــق لــك بقدر استطاعتى هذا المســتحيل ، وأن أحصــل لــك علــى الموافقة المطلوبة ... فقط أرجو تعديلا مبدئيا ، هــو أن تقتصر طلباتك على السفر بالسكك الحديدية البريطانية ، فلا أستطيع الموافقة أيضا على استخدام السفن للوصول بك إلى بلفاست ، أرجوك أن تشطب بلفاست هذه من خطتــك، ثــم دعنا نرى ماذا يمكن عمله فى الباقى ...."

كان من اللائق حينئذ، وإزاء هذا التفاهم السريع فيما بيننا ، والتشجيع الكريم من جانبه أن أبادر على الفور – من قبيــل الذوق والأدب – بالتنازل عن بند واحد هو بند بلفاست مــن برنامج رحلتى الطموح الذى كنت أتمنى أن أحققه ، غــير أننى قلت فى استسلام يختلط بالإصرار فى الوقت نفسه :

"سوف يحزننى ذلك حقا ، لأن زيارة الأســتاذ فــلان فــى بلفاست قد قصدتها فى الحقيقة لــذاته شــخصيا، وليســت للمــكان ، فهو صاحب الدراسات فى فســيولوجيا الــدورة الدموية الطرفية المرتبطة تماما بعملى ، ويــهمنى بــالفعل لقاؤه ..ولكن اذا كان ذلك غير ممكن فإن الأمرمتروك لــك.

...

وكان ذلك هو الصدق تماما ، فنفذت الكلمات إلى إدراك الرجل الواسع الخبرة فى التعامل مع الوافدين ، وعاد مرة أخرى يخترقنى بنظراته قائلا "دكتور آراب : اعتقد أننى سوف أحقق لك كل طلباتك ....!! "

ولقد أوفى الرجل بوعده تماما ....

ولم يكن تنظيم مجموعة رحلات من لندن إلى تلك المدن البريطانية العديدة واحدة بعد الأخرى ، عبر أقصر طريق لتوفير الجهد والوقت والنفقات أمرا سهل التحقيق ، لأن خط سير كل رحلة ومدة الإقامة فى كل مدينة على حدة كان لابد أن يتم بتنسيق دقيق مع توفر فرص لقاء العلماء والأساتذة الذين أردت مقابلتهم ، والتى تعتمد فى واقع الأمر على ظروف عمل كل منهم ...

وكان لابد لتنسيق هذه العملية من مرور أسبوعين متواصلين من الاتصالات المكثفة بالبريد والتليفون لحجز المواعيد مع هؤلاء الناس جميعا....

وكنت أتابع تلك العملية وأطلع على نتائجها أولا بأول ، فأرى الخطة تتكامل أمامى جزءا بعد جزء حتى أصبح فى يدى هيكل أساسى كامل لبرنامج يشتمل على ثلاث رحلات

قصيرة إلى المدن القريبة أعود بعدكل منها إلى لنـــدن،ثــم رحلة طويلة شاملة تستغرق مايقرب من شهركامل لتغطيــة زياراتى فى المدن الأخرى فىخط دائرى متصل •

ولقد تعلمت أسلوب هؤلاء الناس فى المجلس البريطانى فى تنسيق مثل هذه البرامج، بل إننى منذ ذلك اليوم عشقت ذلك النوع من تخطيط برامج الرحلات ، واســـتخدمته بمــهارة متزايدة بعد ذلك فى تخطيط رحلات فردية شخصية لـــى أو رحلات جماعية لمجموعات من الزملاء فـــى كليــة الطــب لزيارة عدة بلاد ومدن فى رحلة واحدة ،وهـــذا الأسـلوب يحتاج لأن يوضع حساب دقيق لمواعيــد السـفر ووســائل المواصلات المتاحة وتدبير حجز أماكن الإقـــامة مســبقا بالفنــادق أو غيرها وتنظيم المستقبلين ، والاهتمام بـــأدق التفاصيل مسبقا احتسابا للمفاجآت غير المتوقعة • وأستطيع الادعاء أننى قد حققت نجاحا كبيرا فى ذلك وخبرة لا تقـــل عن خبرة أى مدير لمكتب سياحى متخصص • • •

وهكـــذا كان مجرد تنظيم رحلتى الأولى عبرالجزر البريطانيـــة طــولا وعرضا مفعمــا بالدروس المفيـــدة فى التنظيم ،فمندوبــــــو المجلس البريطانى يضعون لـك

الإطار العام لموعد الرحلة أولا ؛ ثم تبدأ التعليمات تحدد لك فى يوم كذا ، الساعة كذا سوف تتوجه لأخذ القطار من محطة كذا فى لندن ، القطار يقوم الساعة كذا ويصل الساعة كذا ، وأجرة التذكرة ... وسوف تجد فى انتظارك عند الوصول مستر فلان الذى سيصحبك إلى فندق كذا بشارع ...

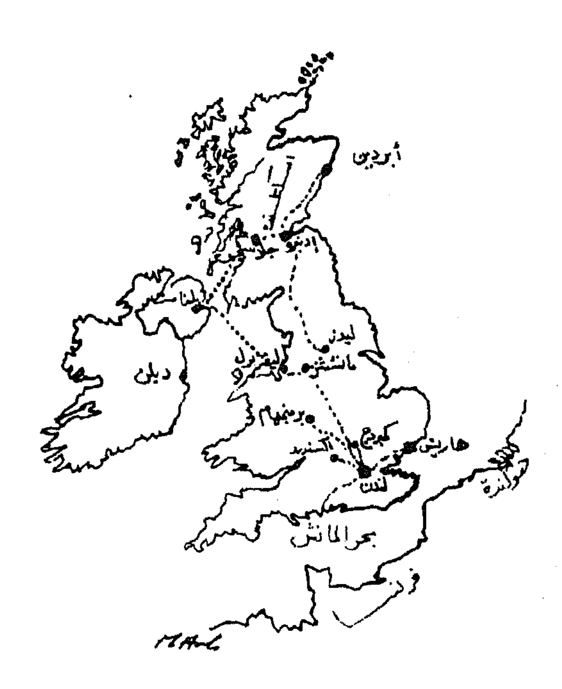
وهكذا هم يمدونك مسبقا بإطار شامل لخط السير باليوم والساعة وخريطة الرحلة ... ثم يمدونك بعد ذلك بالتفصيلات الدقيقة ، إما مسبقا و إما تباعا خلال مراحل الرحلة ، فتذهب إلى الفندق مثلا لتجد فى انتظارك رسالة معنونة باسمك بها تعليمات المرحلة التالية من رحلتك ، هذا إذا لم تكن قد وصلتك هذه التفصيلات من قبل . وهكذا كنت أصل إلى فندق مافى إحدى المدن فأجد خطابا رقيقا من ممثلى المجلس البريطانى المحليين يقول " نحن نرحب بوصولك، سوف تذهب صباح الغد إلى مستشفى ... لمقابلة الدكتور .... الساعة..... ، وسوف يدعوك إلى الغداء بعد العمل وقد وعد أيضا

بمصاحبتك بعد الظهر فى جولة لزيارة بعض معالم المدينة".
ثم تجد فى متناول يدك التفاصيل العديدة التى لاشك أن الإعداد لها قد احتاج إلى تنسيق دقيق بين مركز القيادة فى لندن ومندوبى المجلس بمختلف المدن والمناطق البريطانية...

وهكذا تحققت آمالى فى زيارة عدد ضخم من المدن البريطانية فى طول المملكة المتحدة وعرضها من أقصى الجنوب فى سوثهامتن إلى أقصى شمال اسكتلندة فى أبردين .

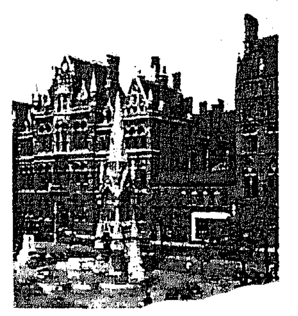
الفصل التاسع

خواطر طبية فى المدن البريطانية




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

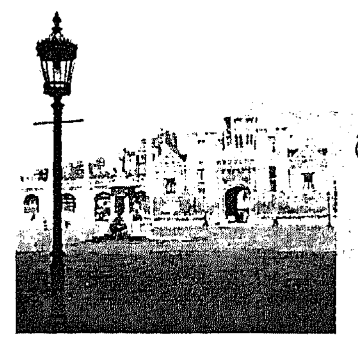
برمنجهام



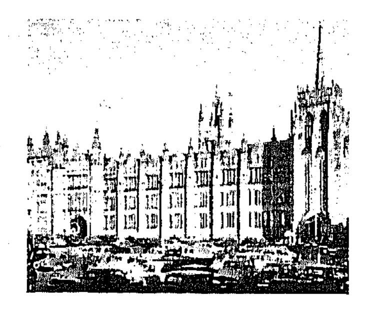
كمبردج

مدخل كنجزكولدج





جامعة أبردين
واجهة أضخم مبنى
فى العالم من
الجرانيت الوردى



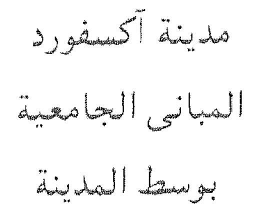


العالم البريطانى الشهير
اسحق نيوتن

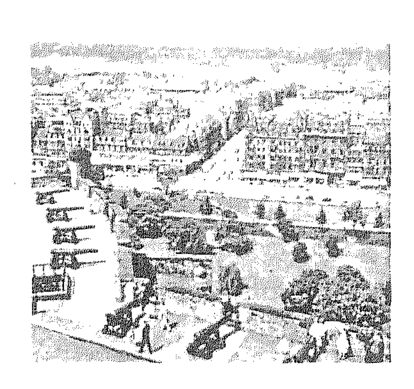


اوليفر كرومويل





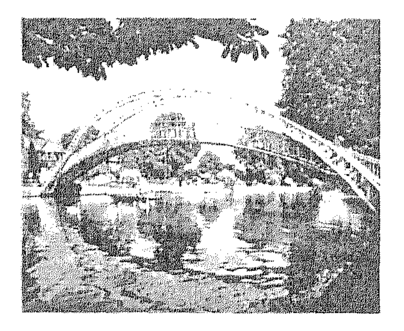
مدينة آكسفورد
المبانى الجامعية
بوسط المدينة



إدنبرة عاصمة
اسكتلندة

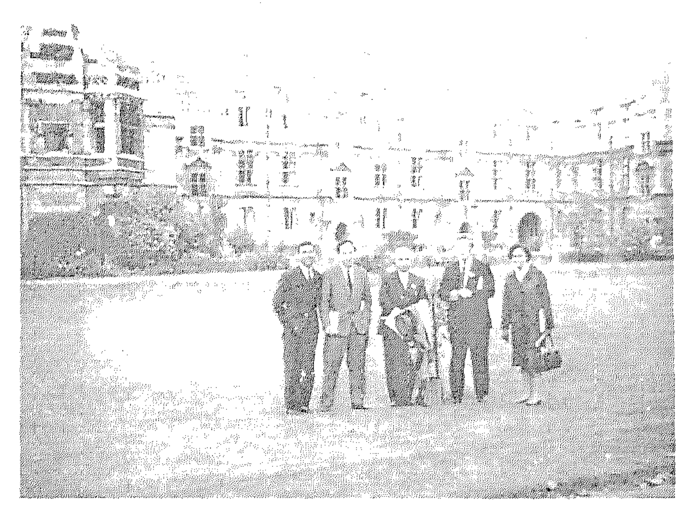


وسط مدينة
جلاسجو



مدينة بدفورد
على ضفاف نهر أوز





فى كمبردج ١٩٦٢ مؤتمر السكر للجمعية البريطانية

برمنجهام -اكسفورد- كمبردج

برمنجهام

لم أكن أعرف من قبل أن مدينة برمنجهام هى أكبر المدن سكانا فى بريطانيا بعد مدينة لندن ، ولكننى كنت أعرف عنها أنها مدينة الصناعات الانجليزية المتقدمة والتى تشمل صناعة كل شىء إبتداء من دبوس الإبرة حتى قاطرات السكك الحديدية والسيارات وأن بها أكبر مصانع الشيكولاته فى العالم .

وعندما تقرر أن تكون ضمن برنامج زياراتى فإننى وصلت إليها قادما من لندن بالقطار لأقضى فيها يوما واحدا لزيارة المستشفى العام بها ، ومقابلة أحد الباحثين الانجليز – دكتور مالينز-الذى كان قد قام بعدة أبحاث عن مضاعفات مرض السكر وعن مرض الروماتويد ، ولذلك فإنه كان من المناسب أن أزوره بترتيبات المجلس البريطانى المعتادة ، وأن أقوم معه بجولة فى أرجاء

المستشفى الكبير واستغرق كل ذلـــك نصــف يــوم فقــط وأمضيت النصف الثانى من اليوم بعد ذلك أتنقل بسرعة بين معـــالــم المدينة الرئيسية ابتداء من مبنى دار البلديـــة ذى الطابع الكلاسيكى مرورا بكنائسها التاريخيـــة الانجليكانيـــة والكاثوليكية التى لعبت دورا هاما فـــى الحيـــاة السياســية وحركة الاصلاح البرلمانى،ثم دار المجلس المحلى والمكتبـة المركزية ومبنى بورصة برمنجهام الشهير ٠

وعندما انتهى برنامج هذه الزيارات كلها عدت إلى فندقـــى لأستعد لمغادرة المدينة فى صباح اليوم التالى مـــن محطــة سكة حديد سنوهيل وهى إحدى المحطات الثـــلاث الكبــيرة الموزعة فى داخل المدينة متوجها إلى مدينة اكسفورد ٠

أكسفورد

لم يكن من الصعب على أن أجد الوســيلة لأن أزور مدينـــة اكسفورد الشهيرة فهى على مسافة لاتزيد علـــى خمســين ميلا من لندن ، وكان برنامجى فى الأصل موجـــها لزيــارة أحد علمائها المشهورين وهو الدكتور كيث كوبر الذى كـــان يعمل فى مركز الأبحاث المتعلقة بحرارة الجسم فى مستشفى

رادكليف انفرمارى (مستشفى) وفى الطريق إلى أكسفورد أخذت استعرض فى ذاكرتى ماستوعبته الذاكرة من قراءاتى عن تاريخ تلك المدينة العريقة .. فهناك فى اكسفورد نشأت أقدم جامعات بريطانيا على الاطلاق منذ أوائل القرن الثالث عشر، وقامت شهرة المدينة ذاتها على وجود الجامعة الأولى بها .. ولايعرف أحد لماذا نشأت تلك الجامعة فى هذه المدينة بالذات ، وهى قد قامت على أى حال على يد مجموعة من المدرسين الذين نزحوا إلى هذا المكان قادمين من باريس حيث كانت توجد الجامعة الأوربية الأكثر قدما وعراقة ، وقد نقل هؤلاء النازحون تقاليدهم العلمية معهم من فرنسا ...

عندما وصلت إلى قلب المدينة حيث تقوم الجامعة ، فوجئت بأنها أروع بكثير مما كنت أتخيل ، فالطرقات هادئة ، ومبانى الكليات الجامعية التى يغلب عليها الطابع المعمارى القوطى والباروكى القديم تصطف عن يمينك أو يسارك فى شموخ وعظمة ، ويكاد الانسان أن يرى نور العلم وجلاله يشعان من كل مبنى فيها ... وهناك مايقرب من ٤٠

مبنى للكليات المختلفة يجمعها طابع الأصالة المميز وكل منها يكاد أن يكون له شبه استقلال ذاتى ..

وفى كل خطوة من خطواتك داخل المدينة تجد هنا أو هناك مبنى شهد أروع أحداث الحياة الأكاديمية ، فهذه كلية مورتون أقدم كليات الجامعة (١٢٦٤م) وتلك كلية كوينز كولدج Queens Colledge أو كلية ماجدالين Magdalin أو كنيسة المسيح Christ Church التى تعتبر فى الوقت ذاته كاتدرائية المدينة ... وكثير غير هذا وذلك من مبانى الدراسة أو المكتبات الجامعية أو دور الإقامة للطلاب والأساتذة ...

ويقول العارفون بتاريخ أكسفورد أن نوعية معينة من الناس هم الذين أقبلوا على الدراسة فى تلك الجامعة عند نشأتها الأولى ، وكانوا فى الأغلب من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يكن لهم فى الحياة نصيب كبير ولكنهم كانوا يسعون لتحقيق مستقبل اجتماعى ومهنى أفضل لأنفسهم عن طريق الدراسة والتعليم ، حيث الطريق الوحيد إلى المراكز المرموقة فى الكنيسة ومن ثم إلى الحياة السياسية فى البلاد أمام أولئك الذين لم

يولدوا ضمن إطار الطبقة الحاكمة، واشتهرت جامعة اكسفورد منذ نشأتها الأولى بالاهتمام بعلوم اللاهوت والفلسفة والطبيعة والميتافزيقيا والآداب .

ومن الطريف أنه عند نشأة الحياة الجامعية الأولى قامت مشاجرات عديدة بين أهل العلم فى الجامعة وبين أهالى المدينة ، وتطورت تلك المشاجرات إلى صدام بين الكنيسة والدولة حتى استقرت الأمور بين جميع الأطراف بعد سنوات طويلة من المشاحنات والمصادمات. وجامعة اكسفورد أقدم من شقيقتها ومنافستها فى الشهرة والعراقة جامعة كمبردج ، وكانت جامعة أكسفورد أكثر تحفظا فى قبول أعمال التطوير والاصلاحات التى حاول المصلحون الدينيون إدخالها فى القرن السادس عشر على برامج التعليم ، غير أنه بمرور الزمن تطورت الأمور بالفعل وأدخلت الاصلاحات العديدة المتتالية على مناهج التعليم ... إلا أن طابع العراقة لم يتخل على الاطلاق عن الدراسات التى تشتهر بها جامعة اكسفورد .

ومن الغريب حقا أنه على بعد ميلين فقط من قلب المدينة الجامعى العريق قامت فى ضواحى اكسفورد مع مرور

الزمن صناعة ضخمة للسيارات ، بدأت منـــذ عـــام ١٩٢٠ بداية متواضعة على يد وليم موريس علـــى هيئـــة أعمـــال بسيطة لتجميع السيارات . ثم اتسعت هذه الصناعة تدريجيـا لتصبح تلك المنطقة من أكبر مناطق صناعة السيارات فـــى بريطانيا حيث تنتج مجموعة مختلفة من ماركات الســيارات الانجليزية الشهيرة ٠٠إلا أن كل ذلك لم يؤثر على الإطــلاق على منطقة وسط المدينة القديم الـــذى تضـــافرت جـــهود الأجيال المتعاقبة عبر القرون لتبقيه على صورته المميــزة وطابعه العريق ، تحيط مبانيه وقاعاتـــه وكنائســـه روعـــة الهدوء وجلال العلم ، ويهرع الزائرون من كل أنحاء العـالم إليه فيغمرهم شعور فياض من الخشوع والتقدير والاحــترام لعظـــمة الحياة الأكاديمية التى يحياها طلاب العلم فى قلب مدينة اكســـفورد ٠٠٠

كمبردج

اسم آخر كان له دائما رنيـــن فـــى أذنـــى كدقـــات الأجراس الضخمة ٠٠٠ وكلما يطرق هذا الاســـم ســـمعى تطوف بمخيلتى على الفور صورة أفواج من طلاب الجامعـة

يرفلون فى أرديتهم الجامعية والأساتذه يسيرون أمامهم فى وقار متجهين جميعا إلى محراب علمهم فى الجامعة ...

فكمبردج المدينة ببساطة هى مدينة جامعة كامبردج، ومع ذلك فإن المدينة ذاتها قد نشأت قبل قيام الجامعة ، فقد كانت كمبردج المدينة سوقا شهيرة خلال العصور الوسطى ، ثم ولدت بها الجامعة بعد ذلك فى أوائل القرن الثالث عشر ..

لم يكن أمام تدبيرى لرحلتى إلى كمبردج بالذات أى صعوبة ، فقد كان من حسن حظى أن يتقرر عقد الاجتماع السنوى لجمعية السكر البريطانية هناك عام ١٩٦٢ وكان على فريق الباحثين فى قسم الطب التجريبى بكلية طب جايز - وأنا واحد منهم - أن يحضروا ذلك الاجتماع لتقديم نتائج البحث الذى كنا قد أتممناه كعمل جماعى لدراسة انتشار مرض السكر فى مدينة بدفورد بالاضافه إلى بعض نتائج بحوثنا المعملية والاكلينيكية الأخرى ...

وقد تكفل المجلس البريطانى من تلقاء نفسه باعتبارى تحت رعايته آنذاك بتحمل نفقات اشتراكى فى هذا المؤتمر كعضو من أعضاء وفد كلية طب جايز للمؤتمر .

وجاء بهذه المناسبة أساتذة من مصر لحضور المؤتمر ، وكان من بينهم أستاذى المرحوم الدكتور مصطفى غانم.

حضر الأستاذ غانم رحمه الله من مصر أولا إلى لندن ، وكان شخصية علمية ممتازة ، بالغ النشاط ، خفيف الروح ، وكانت بينه وبين أستاذى البريطانى بترفيلد صداقة قوية ، ومداعبات طريفة .

وهكذا كان مؤتمر كمبردج للسكر هو أول المؤتمرات العلمية الكبيرة التى أحضرها ... وقد اختاروا لعقده ذلك المكان الجميل وسط الحى الجامعى، وأعدوا لنا أماكن للاقامة خلال أيام المؤتمر داخل مبانى الكليات ذاتها، واستمر المؤتمر ثلاثة أيام كانت فرصتى خلالها كبيرة لأعيش حاضر تلك المدينة العريقة الخلابة ، واسترجع من خلال تاريخها عظمة ماضيها .

ولقد علمت من مرافقى أن جامعة كمبردج على عراقتها نشأت بعد جامعة اكسفورد ، ونتيجة لخلاف قام فى اكسفورد ، انتقلت على أثره جماعة من أساتذة اكسفورد إلى كمبردج عام ١٢٠٩، ومع أنهم عادوا بعد ذلك إلى أكسفورد إلا أنهم كانوا قد وضعوا فى كمبردج أسس الحياة

الأكاديمية على نفس النسق الذى كانت عليه الأمـــور فـــى أكسفورد والمنقول أصلا من جامعة باريس ٠ولكـــن جامعة كمبـــــردج لم تصـــبح لها شخصية مميزة حتـــى عـــام ١٢٢٦ ٠٠٠

كنت استمع بشغف لتاريخ كمـــبردج واكســفورد ، الذى يرتبط بتاريخ التقاليد الجامعية التى يعتز بها الانجلـــيز كل الاعتزاز ويحرصون عليها حرصا شديدا ،و هذه التقــاليد تبهرنا كثيرا مع أننى أتذكر على الفور أننا نحن الشـــرقيون العرب المسلمون قد كنا السباقين إلى وضع كثير من تلـــك التقاليد ونحن منشئوها ٠٠٠

فلئـــن كانت جامعـــة كمبردج العريقـــة عمرهـــا ستة قرون أو سبعة ، فإن أقدم جامعاتنا التى لازالت قائمـــة – وهى الأزهر الشريف – قائمة بالفعـــل منذ مايقرب من ألف عام ،ولئن كانت لهم تقـــاليد جامعيـــة يفخـــرون بـــها ويحرصون عليها ، فلقد كان لنا من قبلـــهم فـــى الشـــرق العربى فى بغداد ودمشـــــق والقـــــاهرة والمغـــرب العربى فى الاندلس، تقاليد أصيلة ٠٠٠

ولا ننسى أن طلاب العلم كانوا يفدون من كـل دول أوروبا إلى الأندلس لتلقى العلم فى قرطبة وطليطلـة التـى شهدت الجامعات فيها أعظم التقـاليد وأرقاهـا ، و كـانت الجامعات هناك تدرس علوم الفلسـفة والطـب والكيميـاء والفلك والرياضيات وغيرها وتمنـح الدارسـين الاجـازات العلمية بعد أن يقـوم الطلاب بتقـديم رسائـل جامعيـة تطـرح للمنـاقشة بواسطة الأساتذة كما نفعل اليـوم تماما ...

ولماذا لا نتذكر أيضا أن العرب المسلمين هم الذيـن أقاموا أول مدرسة للطب فى أوروبا ، وكان ذلك فى مدينـة بالرمو عاصمة صقلية وكانت سالرنو بايطاليا أيضـا مـن أهـم مـراكز نشـر الثقافة العربية الاسـلامية بعـد ذلـك إلى كـل أرجـاء أوروبا .

وأصحو من أحلامى التى تسترجع ماضينا الزاهـر، ليذكرنى صديقى الانجليزى بتاريخ الحياة الأكاديمية الـذى تنطق به المبانى المهيبة لكليات الجامعـة فـى كمـبردج ، فيقول لى أن الحياة الأكاديمية بـدأت فـى عـهدها الأول عندما كان التدريس يتم فى البيوت الخاصة بالمدينة ، ثـم

بدأ بناء أول كليات الجامعة عام ١٢٨٠ وهى كلية بيترهاوس، ثم توالى بعد ذلك انشاء الكليات واحدة بعد الأخرى ، ولم تأخذ جامعة كمبردج وضعا مميزاً قبل حلول القرن الخامس عشر حيث أنشئت بها كليات القانون والآداب والمكتبة العامة وأقيمت كلية سانت مارى وسانت نيكولاس التى عرفت بعد ذلك باسم كنجزكولدج kings Colledge •

ولا يسعك وأن تجوس خلال طرقات كمبردج وتشاهد كلياتها المبنية على الطراز القوطى الكلاسيكى المهيب أن تنسى ذلك التاريخ العلمى والسياسى لانجلترا ، ففى كل بقعة هنا أو هناك ، قد علّم أو تعلّم أحد مشاهير بريطانيا أو علمائها •

فهذه مثلا كلية ترينيتى Trinity التى أنشأها هنرى الثالث عام١٥٤٦ قد شهدت حياة "اسحق نيوتن" عالم الرياضيات والطبيعة الانجليزى الشهير وصاحب الإنجازات العلمية فى دراسة الجاذبية الأرضية،كما تعتز جامعة كمبردج بأن أعظم علماء الإنسانيات فى عصر النهضة وهو الكاتب الهولندى إراسموس Erasums قد عاش لفترة

قصيرة يدرس ويحاضر بالجامعة ووضع هناك أشهر مؤلفاته .ولقد كانت الدراسات الاكاديمية في جامعة كمبردج تهتم باديء ذي بدء بعلوم اللاهوت ثم المنطق ثم انتقلت بعد ذلك إلى ماأطلق عليه مربع العلوم Quadrivium وهو علوم الرياضيات وحساب المثلثات والفلك والموسيقى ، ولم تتسع مجالات العلوم بعد ذلك إلا عندما شجع هنرى الثالث (عام ١٥٤٠) الاهتمام بمختلف العلوم الأخرى . وفى عهد الملكة اليزابيث الأولى أصبحت كمبردج من أهم مراكز حركة البيوريتان وامتد ذلك إلى أوائل عهد أسرة ستيوارت .

ومن الشخصيات البارزة فى تاريخ كمبردج توماس كروموبل (١٥٣٥) الذى عرفت رئاسته بالحزم وعلى يديه ارتبطت الجامعة بالعقيدة البروتستانتية، واستمر ذلك بالرغم من القلاقل السياسية . كما يرتبط تاريخ كمبردج بكروموبل آخر وهو أوليفركروموبل الكبير أوكروموبل الحديدى الذى حكم انجلترا وارتبط تاريخه بتاريخ البرلمان البريطانى والحرب الأهلية وإعدام الملك تشارلس الأول، وهو ابن أخ توماس كروموبل الذى ذكرناه ، وكان أوليفر قد وصل إلى

كمبردج بعد انهاء دراسته القانونية ليدرس فى كلية سـيدنى سسكسSidney Sussex التى كانت معقل دراسة البيوريتـــان قبل أن ينتقل لدراسة القانون بعيدا عن كمبردج بعد ذلك ٠



الفصل العاشر

من ليفربول

الي ايرلنده واسكتلنده



من ليفربول إلى مدن ايرلنده واسكتلندة

ليفربــــول

كانت زيارتى إلى ليفربول خاطفة فلم أتمكـــن مــن رؤية الكثير من معالم هذه المدينة الشهيرة الواقعـــة علـــى الساحل الغربى من انجلترا حيث كان علىّ أن أستقل منــــها على وجه السرعة العبارة إلى بلفاست .

وليفربول مدينة تقوم حياتها على الميناء الضخـــم الذى يجعلها من أهم شرايين الحياة الاقتصادية فى بريطانيا. ومركز اتصال هام بالصناعات المحيطـــة بــها .غــير أن شهرتها العلمية والثقافية وهى التى تهمنى بالدرجة الأولـــى لم تكن مجهولة لى فقد كنت أسمع كثــيرا عــن "المدرســة العليا لطب المناطق الحارة " فى ليفربول لأن الكثــير مــن أساتذتى فى كلية الطب كانوا يحملون الدبلوم المتخصـــص فى هذا الفرع من فروع الطب.والـــذى يدفعنـــا للاهتمـــام بصورة مباشرة بتلك المدرسة أنها تعتبر أهم مراكــز هــذا التخصص فى العالم . أما جامعة ليفربول الأم فقد نشـــأت

منذ عام ١٨٨١ وكانت تضم فى أول الأمر مـــالايزيد علـــى ٩٠ طالبا ثم أصبح بها اليوم عشرات الآلاف من الطلاب ٠ والمدينة فى تاريخ نشأتها الاقتصادية قد اعتمدت أولا على التجارة الدولية القادمة عبر الميناء من أمريكا وجزر الــهند الغربية (السكر والدخان) ثم على صناعات النسيج بـــالقرب منها، أمامن الناحية الإنسانية فقد كان من الملفت للنظر جدا تلك الروح الودية للغاية التى يقابلك بها أهل المدينة وأنــت تتجول فى شوارعها الفسيحة أوتزورمعالمها الشهيرة، ثــم عظمة المدينة ذاتها وأنت تطل عليها من سطح العبّارة وهى تغادر أرصفة الميناء الواقع على امتداد البحر عند مصـــب نهر المرسيى الذى تقـــع عليــه المدينـــة حيــث يبــهرك المنظرالمهيب لخط الأفق مع مبانى المدينة الرائعة ٠

بلفاســـت

كانت مدينة بلفاست مثيرة لى منــذ اللحظـــة التـــى صممت فيها على الذهاب إليها لمقابلة الأســـتاذ جرينفيلـد صاحب الخبرة الواسعة فى أبحاث الـــدورة الدمويـــة فـــى الأطراف والتى كنت قد أجريت على قياساتها بعض الأبحاث

فى لندن ، ثم كانت القصة التى أشرت إليها من قبل وهى اعتراض ضابط الاتصال بالمجلس البريطانى أولا ثم موافقته بعد ذلك على تحقيق رغبتى فى هذه الزيارة .

وكان الأيرلنديون أيضا موضع فضولى فقد كنت أسكن فى لندن فى حجرة مستأجرة لدى أسرة إيرلنديه ولديهم سبعة أطفال وهو رقم غريب بكل المقاييس ولكنهم كانوا أناسا طيبين ودودين للغاية .

وأيرلنده الشمالية وهى جزء من المملكة المتحدة كانت دائما ذات تاريخ مفعم بالقلاقل السياسية والخلافات الدينية بين سكانها الذين يوجد ثلثهم تقريبا فى مدينة بلفاست ، ولكن ذلك لم يكن فى الستينيات بالعنف الذى أصبح عليه فيما بعد .

وبصرف النظر عما يمكن مشاهدته من معالم فى مدينة بلفاست فى الوقت الذى كان متاحا لى بعد زيارة الجامعة (كوينز Queens University) فقد كان عالقا فى ذهنى عن مظاهر الحياة هناك ثلاثة موضوعات: الجو السياسى والدينى ، ثم مأساة السفينة المشهورة تيتانيك التى غرقت فى رحلتها الأولى ، ثم صناعة اللنين الذى اشتهر به

الايرلنديون، وبالطبع هذه الموضوعات قد لايبدو هناك رابط بين الواحد منها والآخر .

ولهذا فقد لفت نظرى عند زيارة المدينة وجود كاتدرائيتان فى بلفاست إحداهما للبروتستانت والأخرى للكاثوليك ، وقد حرصت على الذهاب إلى موقع البرلمان الذى يبعد بضعة أميال عن وسط المدينة فى ضاحية ستورمونت وهو مبنى عظيم وضخم ويعبر عن روح الاستقلالية الذاتية لإيرلنده الشمالية .

وبلفاست بها أحواض لبناء السفن تكاد أن تكون أكبر من مثيلاتها فى العالم وقد دفعنى الفضول إلى أن أتجول داخل الأرصفة المحيطة بهذه الأحواض الضخمة التى تقوم ببناء أضخم السفن التجارية وناقلات البترول العملاقة وكذلك سفن الركاب الهائلة ،وأشهر هذه السفن كان للأسف هو الباخرة المنكوبة تيتانيك التى كانت قد بنيت بالفعل فى هذه الترسانة .

وإذا كانت بلفاست فى الأصل قد نشأت نشأة متواضعة منذ القرن الثانى عشر كسوق تجارى فقد أخذت فى النمو بفضل جماعة من اللاجئين من طائفة الهيجونوت

الذين حملوا معهم مهنة صناعة الكتان الذى اشتهرت به المدينة بعد ذلك وأصبحت مركزا هاما لصناعة وتجارة اللنين الايرلندى الفاخر - إلا أن صناعات أخرى أخذت فى النمو حول المدينة وفى ضواحيها حتى أصبحت بلفاست قلعة للصناعات العسكرية من الطائرات إلى الصواريخ والصناعات المدنية الأخرى كالتليفونات والأجهزة الكهربائية .

أما الجامعة - جامعة كوينز - فلها قصة غريبة فقد نشأت فى الأصل كجامعة ثم أنزلت درجتها بعد بضع سنوات إلى درجة كلية فقط ولكنها استعادت بعد ذلك مرتبتها واعترف بها كجامعة ثم أخذت تنمو باضطراد حتى بلغت شهرة عظيمة فى مجالى الطب والهندسة بوجه خاص .

إلى اسكتلنده

كان الجزء من رحلتى إلى اسكتلنده بالغ الدقة فى التنظيم ، أما المتعة الثقافية والعلمية فقد كانت بلا حدود ، ولازلت حتى اليوم احتفظ باعتزاز بين أوراقى بذلك الكتيب الصغير الذى يحمل اسم "المجلس البريطانى -اسكتلنده "

والذى يضم إلى جانب بعض المعلومات الأساسية عن مكاتب هذا المجلس فى المدن الاسكتلندية المختلفة والأنشطة والخدمات التى تقدمها هذه المكاتب للزائرين صفحة خاصة حددوا لى فيها بالتفصيل خط سير زياراتى لثلاث من المدن الاسكتلندية هى إدنبره وجلاسجو وأبردين – وليعذرنى القارىء الكريم إذا نقلت بالتفصيل أيضا جانبا من تلك التعليمات لنرى معا روعة التخطيط ، والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، فهى تقول على وجه التحديد :

سوف تصل إلى إدنبره يوم الأحد ١٤ أكتوبر وستجد مكان إقامتك محجوزا فى فندق "ساتيزبحى ساوث بردج، وفى يوم الأثنين ١٥ أكتوبر عليك أن تقدم نفسك للدكتور فرانسيس مدير مستشفى الرويال انفرمارى بادنبره الذى سوف يقدمك إلى دكتور لزلى دنكان لإتمام اللقاء العلمى بينكما – وفى الخامسة والنصف مساءا تأخذ قطار أبردين من محطة ويفرلى ويصل ٥٣ر٨ مساء ،وستقابلك بالمحطة مندوبة المجلس البريطانى مس آلان لتوصلك إلى فندق "فيرى هيل" بشارع بون آكورد، وفى الساعة العاشرة صباح اليوم التالى تقابل مدير مستشفى الرويال انفرمارى

بأبردين الذى سوف يقدمك إلـــى دكتورســتوارز للزيــارة العلمية .

وفى يوم الأربعاء سوف تغــادر أبرديــن الســاعة ٤٠ر٩ صباحا لتعود مرة أخرى إلى إدنبره وتصـــل ٠٤ر١ مساء لتنزل فى نفس الفندق (ساتيز) وسوف أقابلك بنفســى (المتحدث هنا هو المستر موراى ممثل المجلس البريطــانى فى اسكتــلنده) وســوف نتناول الغداء معـــا فــى نــادى الجامعة وبعد الظهر تقابل الدكتور فرانسيس لتنظيم زيــارتك العلمية الثانية بلقاء الدكتورة كاترين بــيرت . وفــى يــوم الخميس ١٨ أكتوبر تسافر من محطة ويفرلى إلى جلاســجو فتصل إلى محطة كوين ستريت هناك وقد حجزنا لك غرفـــة فى فندق جمعية الشبان المسيحية بشارع بوذويل ، وبعـــد الظهر سوف تقابل الدكتور بلور وســيتولى مكتبنــا فـــى جلاسجو إمدادك بتفاصيل البرنامج بعد ذلك . . . .

سبحان الله ،هل بعد كل هذا التخطيط والتدقيق يوجد أمام الانسان إلا أن يتعلم الدرس ويعيه تمامـــا ، وأنـــا أرى بعد ذلك كل صغيرة وكبيرة من هذا السيناريو تتم بمنتـــهى الانضباط والإتقان . . . . .

وعندما بدأت فى الاستعداد للذهاب إلى اسكتلنده كان علىّ أن أراجع معلوماتى عن هذا الجزء الهام المكوّن للمملكة المتحدة، وكثير من هذه المعلومات كان يحيط به التشويش فى ذهنى ولهذا فقد قررت أن أتسلح بالحد الأدنى من المعلومات عن ماضى وحاضر اسكتلنده التى لم تصبح فى وحدة سياسية نهائية مع انجلترا إلا فى عام ١٧٠٧ وكان تاريخها من قبل حافلا بالقلاقل السياسية والاضطرابات الدينية شأنها شأن انجلترا أيضا ،ولم تكن اسكتلنده قد توحدت من داخلها فى مملكة واحدة إلا عام ١٠٣٤ ، وقد تم قيام الاتحاد مع انجلترا فى عهدة الملكة آن التى أصبحت أول من يجلس على عرش بر يطانيا العظمى ولم تفلح بعض القلاقل السياسية بعد ذلك فى فك هذا الارتباط .

ويخطىء من يظن أن الشعور بالاندماج التام قد تحقق بين الشعبين الانجليزى والاسكتلندى بصورة كاملة، ولايخفى على الزائر أن الاسكتلنديين ينتابهم دائما الشعور الجارف بالاستقلالية والاختلاف عن الانجليز ، وقد بلغ هذا الشعور حد المرارة بوجه خاص عندما اجتاحت العالم

الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات وقد عانت منه اسكتلنده بعنف نتيجة لاعتماد الصناعات الكبرى بها على علاقتها بانجلترا، إلا أن اسكتلنده قد حققت مع ذلك مكاسب لايمكن إنكارها من الاتحاد مع انجلترا ولهذا فإن المشاعر بالاستقلالية عن التاج البريطانى لم تصل فى أى وقت إلى مثيلتها فى ايرلنده .

ومع عدم الدخول فى تفاصيل الصراعات السياسية التى انتهت بالاتحاد بين انجلترا واسكتلنده فلابد من أن نتبين أن هذا الاتحاد لم يحطم الاستقلال الذاتى لاسكتلنده تماما، فبقيت الكنيسة فى اسكتلنده مستقلة عن الكنيسة الانجليزية ، كما استمر النظام القانونى والقضائى مختلفا عن نظيره الانجليزى إلى حد كبير، ويظهر ذلك فى الاجراءات المرتبطة بالمسائل الجنائية والقانونية فعلى سبيل المثال يمكن أن تصدر المحاكم فى النظام الاسكتلندى فى اتهام جنائى حكما بأنه "لم يثبت" ، كما أن الوصية المكتوبة بواسطة الموصى لاتحتاج إلى شهود ، والزواج يمكن أن يُعترف به قانونا إذا كان موثقا أو كان زواجا

بمقتضى مراسم دينية،أوكـــان بمجــرد ثبــوت المعاشــرة الطويلة بدون أى مراسم ٠

أما اللغة الاسكتلندية فهى بالطبع الانجليزية ولكـــن اللهجة السائدة ممـــيزة ولاتخطئـــها الأذن ،وتســتطيع أن تميزها بسهولة عن لغة الانجليز فى لنــدن، وهـــى نتيجـــة لتأثير مشترك من مصدرين الأول هو اللغـــة الوافـــدة مـــن الجنوب أى من انجلترا ذاتها والثانى هو اللغة التى وفـــدت مع المهاجرين من أيرلنده ٠

إدنبــــر ه

كانت زيارتى لإدنبره عاصمة الشـــمال الاســـكتلندى مجزأة على مرحلتين لتتفق مواعيد مقابلاتى مــــع ظـــروف أساتذتها ، إلا أنها كانت كافية لإطلالة سريعة على المدينـــة التى يرتبط اسمها بوجه خاص فى ذهن أى طبيب مصـــرى بدرجة "زمالة كلية الأطباء الملكية بادنبره"التى كنت كثـــيرا مـاأسمع عنها لأن عددا كبيرا من قدامـــى أســاتذة الطـــب المصريين كانوا قد بدأوا مناصبهم الجامعية بعد حصولــــهم

على درجات التخصص العالى عن طريق نيل شهادة تلك الزمالة أو أختها "زمالة كلية الأطباء الملكية بلندن " .

وإدنبره بالطبع هى احدى المدن البريطانية الكبرى وبها قلعة شهيرة تقوم على جبل صخرى مرتفع يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر، وقد نشأت المدينة ذاتها على سفح ذلك الجبل ثم أصبحت ادنبره عاصمة لاسكتلنده فى القرن الخامس عشر ، وأعيد تخطيط المدينة بعد ذلك بميادين وطرق فسيحة أهمها طريق الأمراء Princes Street وطريق الميل الملكى Royal Mile المتوازيان ويكونان معا المحور الأساسى فى تخطيط المدينة .

وقد دفعنى الفضول لأن أتحرى عن سبب شهرة إدنبره فى مجالى التعليم والطب ، فعرفت أن التعليم فى اسكتلنده بوجه خاص فى نشأته الأولى قد تميز عن التعليم فى انجلترا بالاعتماد على تقاليد التعليم الخاص حيث كان الطلاب يدفعون مصروفات تعليمهم ، مع إنشاء المدارس والكليات بالجهود الخاصة . وقد أسست الجامعة هناك علم ١٥٨٣ واشتهرت بوجه خاص بدراسة الطب والقانون

وكانت جامعة إدنبره أول جامعة بريطانية تنشىء فى كليـــة الطب بها برنامجا كاملا لتعليم الطب (عام١٧٢٦) .

وزيارة إدنبره تشعرك على الفور بصدق ما وصفـت به المدينة بروح فيها الكثـــير مـــن التقــاليد الأوروبيـــة ، والمجتمع هناك - على الأقل حتى وقت زيارتى لـــها عـــام ١٩٦٢ -كان لايزال بالأصالة التى لم تتأثر كثيرا بالتحولات الطبقية حيث ظلــت آداب التعــامل والعلاقــات الشــخصية الإنسانية الراقية هى السائدة بيـــن النـــاس جميعـــا علـــى السواء.

أبـــرديـــن

ولم تكن زيارتى لأبردين فى ذلك اليوم من خريـــف عام ١٩٦٢ -وهى فى أقصى الجزء الشمالى من اســكتلنده - إلا زيارة قصيرة ، وحسنا أنها كانت قبل حلـــول فصـــل الشتاء الذى لابد وأن يكون قارص البرودة هناك ، وأستطيع أن أتخيل مبانيها عندئذ وهى مغطاة بطبقات الثلوج مما كان ولابد أن يفقدنى متعة ماشد انتباهى من جمال هذه المبـانى عندما رأيتها فى صباح اليوم التالى لوصولى ، فهى مدينـــة

يغلب عليها اللون الأبيض المشرب بشــىء مــن الصفــرة الوردية ، وقد زال عجبى عندما عرفت أنهم يطلقون عليــها اسم "مدينة الجرانيت " لأن هذا اللون الجميل لمبانيها هـــو السبب، فهى مبنية بأحجار الجرانيت الفاتح اللون ، ولـــهذا فإنه يختلف عن الجرانيت المصرى المعروف لنـــا والـــذى يغلب عليه اللون الأحمر الداكن .

وعندما استيقظت فى الصباح للقيام بزيارتى العلمية أردت التجول فى المدينة الجميلة الهادئة ذات التاريخ القديم الذى يرجع إلى القرنين الثالث والرابع عشر فوجدتـــها مـــا تزال تحتفظ بطابعها القديم قـــرب منطقـــة وســـط المدينـــة "كاسلجيت"أى بوابة الحصن والتى كانت فى الأصـــل مقـــرا لسوق المدينة فى العصور القديمة .

وقد علمت أن جامعة ابردين قد نشأت عـــام ١٨٦٠ من اتحاد كليتين من كليات العصور الوسطى كـــان يغلـــب عليهما الطـــابع الدينـــى إحداهمـــا كاثوليكيـــة والأخـــرى بروتستانتيه، ثم توالى بعد ذلك إنشاء كليـــات أخـــرى فـــى مختلف التخصصات .

وقد كانت أبردين أصلا من أكـــبر موانـــى الصيـــد المطلة على بحر الشمال ومركزا للتعامل الاقتصـــادى مـــع الدول الاسكندنافيه ودول البلطيق المواجهة علـــى الجـــانب الأخر، ولكنها أصبحت بعد ذلك من أهم المراكز للصناعـــات البترولية بعد اكتشاف البترول الوفير فى بحر الشمال ٠

جلاسجو

انتهت زيارتى القصيرة لمدينة جلاسجو بعد أن قمت بزيارة علمية سريعة للمستشفى الغربـــى بالمدينـــة West Infirmary للقاء أحد الأساتذة المتخصصين فـــى الأوعيـــة الدموية، ثم توفر لى بعد ذلك الوقت الكافى للتجـــول فـــى المدينة الكبيرة التى تعتبر العاصمة الاقتصادية لاســـكتلنده والتى يسكنها حوالى خمس سكان اسكتلنده ، و تقع علـــى الساحل الغربى من المضيق الذى يفصـــل اســـكتلنده عـــن ايرلنده الشمالية وهى لذلك مركز صناعى وتجارى هام جدا وأما عن جامعتها فهى ثانى أقدم الجامعات الاسكتلندية ومن أشهر كلياتها "كلية العلوم والتكنولوجيا" التى تعتبر بـــالفعل أقدم كليات التكنولوجيا فى بريطانيا ٠

وكنت قد خططت لنفسى أن أزور وسط المدينة لأرى أشهر معالمها على وجه السرعة ثم أتوجه بعد ذلك لزيارة أحد المعالم الذى كنت أتطلع لزيارته بوجه خاص وهو النصب التذكارى للرحالة الاسكتلندى الشهير دافيد ليفنجستون مستكشف الكثير من معالم القارة الافريقية ٠ ويرجع اهتمامى بشخصية هذا الرجل الاسكتلندى إلى قصة حياته الغريبة التى بدأت بتخرجه طبيبا ولكنه بسبب ميوله الدينية تحول إلى مهمة التبشير ، وكان ينوى أن يقوم بهذه الرسالة فى الصين إلا أن الأقدار دفعت به إلى إفريقيا حيث بدأ من بتشوانالاند ومارس مهمته التبشيرية ، ولكنه بدأ فى نفس الوقت عمليات استكشاف المجهول من قارة افريقية الغامضة ، وتم له عمل ثلاث رحلات متوالية غطى فيها منطقة حوض نهر زامبيزى واكتشف عدة بحيرات ووصل إلى بحيرة تانجا نيقا فى آخر المطاف ٠

وقد أصابنى الاحباط لأن الوقت لم يمكننى من زيارة الموقع الذى يوجد فيه منزل هذا الرحالة ٠

وللأسف الشديد فإن الظروف قد توفرت لى لزيارة أخرى لاحقة إلى مدينة جلاسجو عام ١٩٨٩ ضمن وفد

من كلية الطب بدعوة من جامعتها ومع ذلك لم تتـــح لـــى الفرصة تلك المرة أيضا لتحقيق رغبتى فى زيـــارة معـــالم النصب التذكارى للرحالة ليفنجستون التى أضعها فى خططى المستقبلة إذا سمحت الظروف بمشيئة الله ،

وربما بدأ اهتمامى منذ الصغر بأخبار الاكتشـــافات الجغرافية التى قامت فى افريقيا خاصة ماكان منها لاكتشاف منابـــع النيـــل فقـــد كانـــت تلهب خيـــالى بمـــا فيها من إثـــــــارة ، وقد استمر اهتمامى بأخبار هـــذه الاكتشافات ومتابعة قصصها التى دفعت بى بعد ذلك بسنوات عديدة لتخطيط زيارات متعددة إلى قلب القـــارة الإفريقيـــة والوقوف عند منابع النيل فى بحيرات فيكتوريـــا وتنجانيقـــا وغيرها ،ومشاهدة العلامات التذكارية والتى تشـــير إلـــى مسيرة المستكشفين بمختلف المواقع هناك ،

- وهنا أستأذن القارئ الكريم فى الأنتقال إلى كتابى الرابع من مجموعة الوقائع الطبية والذى يحكى قصة زيارتنـــا لافريقيا تحت عنوان ،

" سفراء إلى إفريقيا فى ملابس بيضاء "






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجموعة وقائع طبية تحكي قصصا واقعية لأحداث عايشها المؤلف خلال فترة تزيد عن نصف قرن من حياة حافلة بالتجارب العميقة منذ أن كان طالبا يدرس الطب إلى أن بلغ أرفع الدرجات الجامعية وسافر إلى جميع أرجاء العالم وتولى العديد من المسئوليات فى مصر وفى المنظمات العلمية الدولية ولم يكن فى كل ماراه وسمعه وعايشه مجرد شاهد عيان وإنما كان صانعًا للأحداث ومشاركًا إيجابيًا فى كل ماترويه هذه المجموعة من الكتب الموثقة عن تلك الأحداث .

الدكتور مرسى عرب

- أستاذ الأمراض الباطنة بكلية طب [illegible] الإسكندرية .
- ولد بالإسكندرية ١٩٣٢ وتخرج من كلية الطب ١٩٥٥ وأصبح أستاذا ورئيسا لأقسام الأمراض الباطنة بها .
- تولى مناصب قيادية فى الجمعيات العلمية على المستوى القومى والدولى (نائب رئيس الإتحاد الدولى للسكر والمنظمات العربية والإفريقية ودول البحر المتوسط) .
- أسس العديد من الجمعيات والمؤسسات الأهلية لخدمة المرضى والطلاب والخريجين ودعم التقدم فى العلوم الطبية ودعم القيم الإنسانية والحضارية [illegible]
- [illegible]
- [illegible] فى جامعتى لندن والينوى بالولايات [illegible]
- صدر له الى جانب مؤلفاته [illegible] فى الطب الباطنى وفى تاريخ [illegible] العربى مؤلفات فى الشعر والأدب [illegible]
- عضو اتحاد الكتاب [illegible]

هذا الكتاب

يروى قصصا من حياة مبعوث مصرى فى لندن فى أوائل الستينيات والدروس المستفادة من مشاهدات وتجارب حافلة لها إنعكاسات مؤثرة على واقع حياتنا . هذا إلى جانب الدروس والعبر وطرائف كثيرة عن حياة الإنجليز وسلوكياتهم .

الناشر

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع
٤٤ ش طيبة - سبورتنج - الإسكندرية
مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع ٧ ش علام حسين - الظاهر - القاهرة